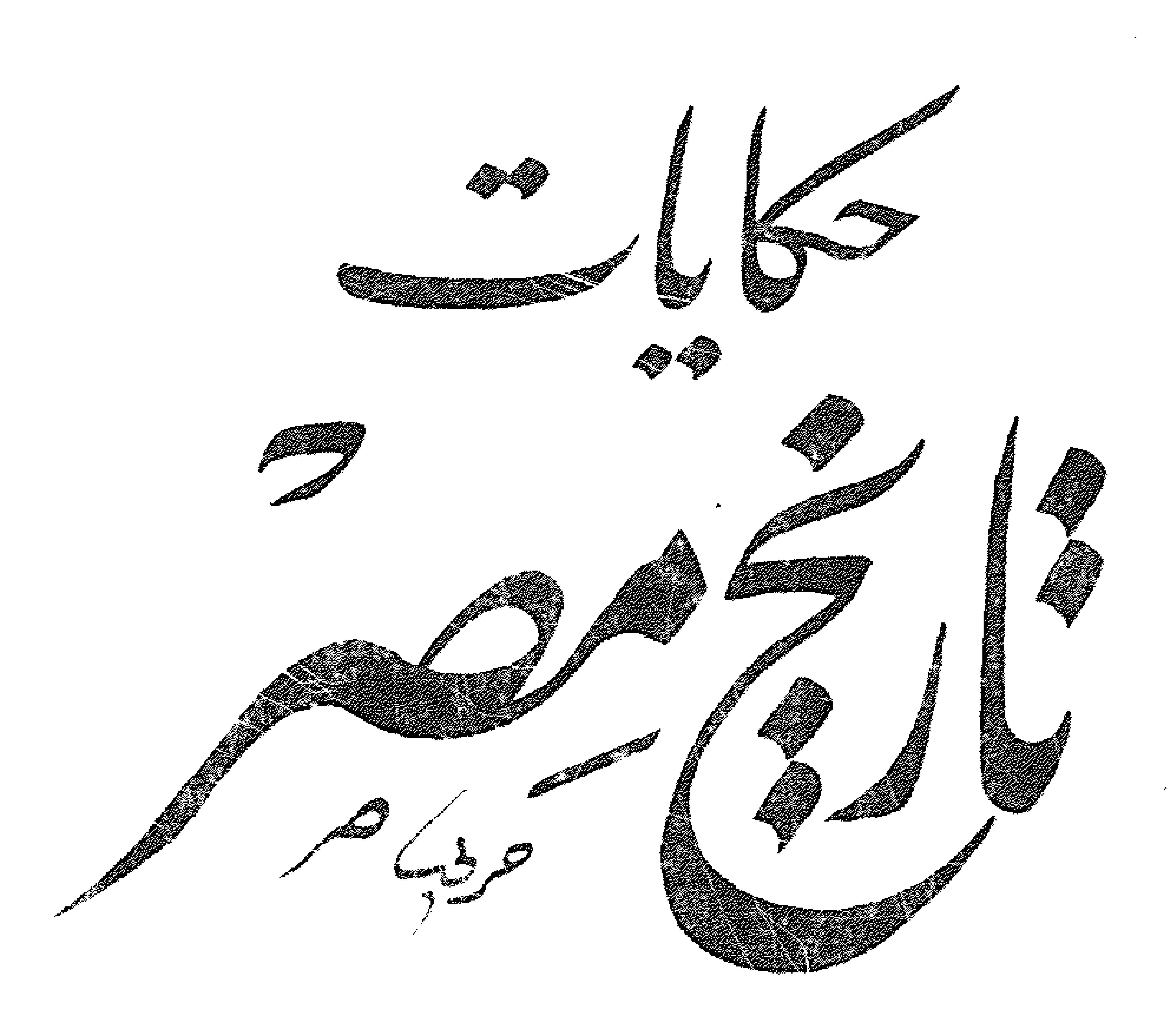
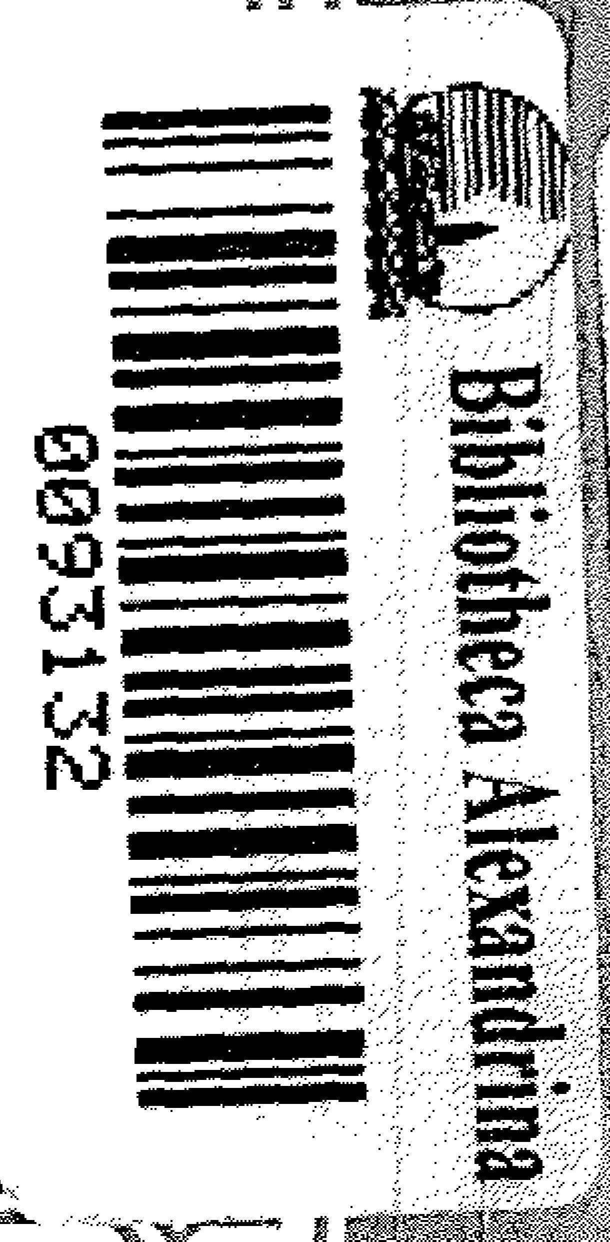


للشيخ الجبرتي

بسطها

محمد عبد المنعم رضوان
المدير بوزارة الأوقاف والأزهر

الناشر مكتبة الآداب
٤٢ ميدان الأوبرا ت : ٣٩٠٠٨٦٨



حكايـــات
تاريخ مصــر للناشئين
للجَبَرْتِي

عَشْرُ حكايات (١ - ١٠)

بسّـطهـا

محمد عبد المنعم رضوان

المدير بوزارة الأوقاف والأزهر

الناشر مكتبة الآداب

٤٢ ميدان الأوبرا - ٣٩٠٠٨٦٨

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

أولادى الأحباء.. حفظكم الله مِنْ كل شر، وجعلكم من سعداء الدنيا والآخرة. سوف أحكى لكم حكايات من تاريخ مصر أم الدنيا والحضارة. رواها جدنا المؤرخ المصرى العظيم: الشيخ عبد الرحمن الجبرتى.

وُلد الجبرتى فى عام ١١٦٧ هـ = ١٧٥٤م، وتوفى عام ١٢٤٠ هـ = ١٨٢٥م، أى أنه شهد القرنين الثانى عشر والثالث عشر الهجريين، والثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين. وقد شهد فترة حاسمة من تاريخ مصر الحديثة؛ فقد عاصر الحملة الفرنسية على مصر بقيادة نابليون القائد الشهير. واختلط بعلماء هذه الحملة الأفذاذ العباقرة. وشهد أولَ مطبوعات بالعربية تُطبع على المطبعة التى جاءت بها الحملة الفرنسية. وشهد نهايةَ دولة أمراء المماليك الذين أفسدوا حياةَ مصر، وأكثروا النهبَ وظلمَ المصريين، وكانوا

مع الأتراك سببًا فى تأخر مصر، وجهل أهلها بالعلوم الحديثة. ولولا الأزهرُ الشريف قلعة الإسلام العلمية ووقوف علمائه الشجعان فى وجه مظالم أمراء المماليك لَقُضِيَ على مصر قضاء كاملاً.

وأخيرًا شهد الجبرتى نهضة مصر الحديثة على يد محمد على باشا..

كان عبد الرحمن الجبرتى شجاعًا، يقول الحق، ولا يخاف من الحكام، ويهاجم المظالمَ، ويدافع عن الشعب، وينتقد الطغاة فى قسوة. ولم يُعجب هذا حاكم مصر محمد على باشا، فاغتال ولده ووحيده الشاب «خليل». وحزن الشيخ عبد الرحمن الجبرتى على ولده، حتى كُفَّ بَصَرُه ومات مقهوراً، ولكنه ترك لنا هذا الكتاب العظيم الذى أسماه «عجائب الآثار فى التراجم والأخبار». والذى نحكى منه هذه الحكايات العجيبة؛ لنعرف تاريخ وطننا العظيم فى العصر الحديث، ونزداد حبًا له، ونعمل دائمًا على رُقِيِّه ورفعته حينما نشب ونتسلح بالعلم والدين والخلق الرفيع والشجاعة التى تتحدى المخاطر، والإرادة القوية التى لا تعرف مستحيلاً فى الحياة.

والتاريخ يا أولادى من أعظم العلوم نفعًا، وأكثرها متعة وجاذبية للدارسين، فهو يَصِلُ الماضى بالحاضر، ويجعلنا نعيش مع عظماء العالم وأحداث الأمم. نَتَّعِظُ بأحوال الماضين، ونستفيد التجارب النافعة بالوقوف على تقلبات الأيام، لنتجنب سوء أفعال الماضين ونقتدى بحسن أفعالهم لنكون عظماء مثلهم؛ لأن التشبه بالعظماء نجاح وفلاح.

الحكاية الأولى

الفريق الأحمر والفريق الأبيض

حينما تشاهد التعصب بين مشجعى الأهلى والزمالك فى كرة القدم والانفعالات التى تحدث بالحزن أو السرور لفوز فريق على الآخر، والتشجيع الجنونى من جماهير الفريقين الأحمر والأبيض لفريقه حين يحرز هدفًا فى مرمى الخصم.. حينما تشاهد ذلك الهوس والجنون والانفلات الجماهيرى يا ولدى الحبيب. فسوف لا تتعجب حينما تسمع تلك الحكاية من جدنا العظيم المؤرخ الجبرتى.

يقول الشيخ عبد الرحمن الجبرتى: انقسم المصريون فى عهد السلطان سليم العثمانى (فاتح مصر عام ١٥١٧م) إلى فريقين: أحمر وأبيض. فالفَقَارِيَّةُ وهم الأتراك ومَن والاهم من الأمراء لهم الزىُّ الأبيض. والمصريون ومن والاهم من الأمراء وهم القاسمية لهم الزى الأحمر. وأراد السلطان العثمانى سليم الأول أن يحكم مصر بمبدأ «فَرِّقْ تَسُدْ» وهو

إيقاع الفرقة بين المصريين حتى يحارب بعضهم بعضًا ويعادى بعضهم بعضًا فلا يتَّحدُون ضده، أو يخلعون طاعته ويطردون ويطردوا قواته المحتلة.

يقول جدنا المؤرخ المصرى العظيم الجبرتى:

لما بلغ السلطان سليم مِنْ مُلْكِ الديار المصرية مُناه، وقتل مِن حكام مصر المماليك الجراكسة مَنْ قتل، قال يومًا لبعض جلسائه وخاصتِه وأصدقائه:

هل يا ترى بقى أحدٌ من الأمراء المماليك الجراكسة نراه؟ فقال له الخائن «خاير بيك»: نعم أيها الملك العظيم، هنا رجل خطير يسمى «سودون الأمير»، طاعن فى السن، رَزَقَهُ الله تعالى ولدين شهمين بطلين لا يضاهيهما أحد فى الميدان، ولا يناظرهما فارس من الفرسان.

فصاح السلطان سليم: برافو خاير بك.. آه. أو نحن نقول لك كما أطلق المصريون عليك: خاين بك. ها.. ها.. لأنك خنت سلطانك السلطان العظيم الغورى. سلطان مصر والشام واليمن والحجاز وقبرص.

خاير بك: لقد خنتهُ من أجلكم يا مولانا السلطان، ولولا انسحابى بقواتى أثناء معركتكم معه فى مرج دابق فى الشام، لانتصر عليكم ولأباد الجيشُ المصرى قواتكم كما حقق النصر عليكم مراراً فى عهد من سبق من سلاطين المماليك، وخاصةً السلطان الأشرف «أبو النصر قايتباى»، الذى سحق جيوشكم فى عدة معارك فاصلة.. لقد كانت خيانتى لكم يا مولانا السلطان لا عليكم. خنتُ سلطانى الغورى الذى وثق فى شخصى وجعلنى قائد جيوشه. فلما انسحبتُ بقواتى عند اشتداد المعركة حارب حتى ضاع تحت سنابك الخيل فلم يُعثر له على أثر، فكان له من اسمه نصيب إذْ غارت به الأرض. وقال القضاء لها: غورى بالسلطان الغورى الذى ظلم المصريين كثيراً وقبلَ الرشوة، وشاع فى عهده الفساد، فقد خان نفسه ووطنه وملكه قبل خيانتى له يا مولانا السلطان؛ لأن الملك يقوم على العدل ويهدمه الظلم. لقد كان النصر لجيش مصر عليكم فى البداية، وبخيانتى صار النصر لكم فى النهاية يا مولاى.

السلطان سليم: ها. ها. برافو ولد خاير بك، برافو ولد

أمير. سأجعلك أمير الأمراء فى مصر.. ولكن قل لى ولد أمير الأمراء عن الأمير سودون وولديه البطلين.. قل لى عنهما المزيد..

خاير بك: نعم يا مولانا السلطان الفاتح العظيم سليم.. لما رأى الأمير سودون الظلمَ فى مصر قد شاع، وملأ الأسماع، ورأى الأمور قد اختل نظامها. وقد صرخت الرعية تطلب من الله إزاحة هذه البلِيَّة، وكان قد علم بأن الحرب ستقع بينكم وبين السلطان الغورى، طلب من ولديه البطلين الاعتزال فى الدار، والاعتكاف عن العمل والعبادة، وتَرْكَ المعارك وخدمة السلطان؛ لأن الغورى مهزوم لأنه ظَلوم، ودولة المماليك العظيمة لن تدوم، فقد اقتربت نهايتها، وسوف يحل بها الخراب، ويزعق على خرائبها البوم والغراب.

السلطان سليم: هذا واللهِ رجل عاقل خبير بالأحوال، ونادرٌ وجوده بين الرجال.. فهيا بنا نذهب إليه، ونقتبس الحكمة مِنْ فِيهِ، ونستفيد بخبرته وتجربته وحسن سياسته وثمين نصائحه.

خاير بك: هيا بنا يا مولانا السلطان.

وسارع السلطان برجاله وحرسه وأعوانه إلى دار الأمير سودون.

فوجده جالسًا على مصطبة من الأحجار فى فناء بيته وهو يقرأ القرآن العظيم، يتقرَّب به إلى رب العالمين، وعنده الخدم والأتباع، كلٌّ يقوم بعمله خَيْرَ قيام، فلما رأى فاتحَ مصرَ السلطانَ سليم الأول العثمانى فى داره حَيَّاه وأكرمه غاية الإكرام هو وصحبه الكرام.

الأمير سودون: مرحبًا بك فى دارك يا مولانا السلطان، هلاَّ أرسلت إلىَّ وأنا الذى كنتُ آتيك سعيًا على الأقدام؟

السلطان: بل أنا الذى أحببتُ أن أزوركَ فى دارك بعد ما سمعت عنك من مليح الأفعال. ولكن لماذا اعتزلت سلطانك الغورى أنت وأولادك واستقلت من وظائفك وتفرغت لعبادة ربك مع أنك أمير كبير، وعاقل بصير، والعمل فى طاعة الله وخدمة الناس عبادة عظيمة، لها من الله أعظم الجزاء وأحسن الثواب؟

الأمير: اعتزلتُ السلطان يا مولانا لِما رأيتُ من فساد

الأمور، وكثرة الظلم والجور. وأن السلطان الغورى مغرور، مستقل برأيه، مستبد فى حكمه، لا ينصت إلى وزير ولا عاقل خبير، وقد شاعت الرشوة فى عهده، وتكالب على اغتصاب أموال رعيته وتخزين الذهب والأموال، وقد أبعد عنه كبارَ دولته، وقتل أكثَرَهم بحيلته، وعيَّن صغارَ الرجال فى مناصب الكبار، فكلُّ مَنْ يقدِّم له الأموال يجعله من الحكَّام، وكلُّ قاضٍ ظالم يدفع له الرشوة والهدايا يجعله حكمًا بين الناس، وقد ترك أتباعه يفعلون فى الشعب المسكين ما يريدون. فسعوا فى الأرض فسادًا، وظلموا العباد، وتَعَدّوا على اليتامى والرَّعِيَّة حتى أخذوا ظلمًا وعدوانًا من الورثة مواريثهم الشرعية، فانحرفت قلوب الشعب عن السلطان، ودعوا اللهَ العادل المنتقم الجبار بأن يغور الغورى فى باطن الأرض، ويُعِزَّ عدوَّه، ويخونه أقربُ الناس إليه، ويشرب مُرَّ الآلام قبل أن يأتيه الموت بِحَدِّ الحسام.. فعلمتُ يا مولانا بأن نهايته قد اقتربت، فاعتزلتُ مع ولدَىَّ فى دارى، وأقبلتُ على ربِّى بتوبتى وانكسارى، ومنعتُ ولدَىَّ من الحرب والقتال، لما أعلمه فيهما من الشجاعة والإقدام.

السلطان سليم: ها. ها. عظيم. عظيم. وقد استجاب الله لدعوات الشعب المصرى؛ فنصرنى على الغورىّ ومات ذليلاً، وقد غارت به الأرض فلم تشاهَد له جثة، ولم يُعثَر له على أثر.

الأمير خاير بك: لقد مات بعد أن فررتُ عنه مع قواتى وبعد أن كان النصر له فى البداية، وهزم جيشكم يا مولانا، وقتل منكم عشرة آلاف جندى.. فوقف مع قلة قليلة من أتباعه فى شجاعة نادرة، ورفض الفرار من ميدان المعركة. وكان كالجبل الشامخ فوق حصانه المهيب.. ولكن شدة العطش، وانقلاب النصر إلى هزيمة بعد خيانة أقرب قواده له.. كل ذلك أصابه بالحزن القاتل فأصيب بالشلل النصفى، وسقط سيفه من يده المشلولة، وسقط فوق الثرى تحت سنابك الخيل. وقد مزَّقته حوافرُها شرَّ ممزَّق. وغارت به الأرض يا مولانا. وقد حَقَّ عليه ذلك؛ لأنه لم يكن يعرف حُسْنَ السياسة والعدل حتى فى ميدان القتال.. فقد تركَ جنودَنا يقابِلون الموت ويحققون النصر فى البداية.. ومنع جنودَه ومماليكَه المقرَّبين مِن الاشتراك فى المعركة. ولما علمت بقية

فرق الجيش المصرى بذلك ثاروا وغضبوا، وأوقفوا الحرب.. وحينما علم بذلك وبانت له الهزيمة وسوء المصير، أخذ يصيح بهم: «حاربوا، قاتلوا أيها الجنود الشجعان ولكم منى ما تريدون». ولكن هيهات؛ فقد تغيرت عليه القلوب، وخنتُه مع قواتى وبعض قواده الكبار، وانْحَزْنا إليك يا مولانا فكان النصر لك.

السلطان: ها.. ها.. لقد قدَّمتم إلىَّ ملكَ مصر والشام والحجاز على طبق من الذهب يا أمير خاير بك. ولكم منًّا ما تريدون.. وسوف أجعلك أمير الأمراء فى مصر، ومكان السلطان الغورى فى الحكم وإدارة شئون البلاد..

* * *

ثم قام الأمير سودون مع ولديه البطلين بإكرام السلطان وحاشيته بما لذَّ وطاب من الطعام والشراب. ووجد السلطان فى الأمير سودون رجلاً حكيمًا، وفى ولديه الشجاعة والبطولة والذكاء والفصاحة والعلم والثقافة.. فَسُرَّ بهم غاية السرور. وتقبَّل هدايا الأمير سودون وجعله مع ولديه فى الدرجة الرفيعة بين أمراء البلاد، وحقق لهم مطالبهم، وطلب

منه الحضور فى الغد إليه.

وفى اليوم التالى جمع السلطان العساكر والفرسان، وطلب من البطلين قاسم سودون وذى الفقار سودون أن يستعرضا أمام الجيش فروسيتهما. ومهارتهما فى الكَرِّ والنزال والحرب والقتال، فأتيا من أنواع الفروسية والمهارة ما أذهل الأبطال، وتعجب من فروسيتهما الأتراك، وقال الجميع: هذان بطلان ليس لهما فى الوجود نظير.

وسُرَّ منهما السلطان سليم غايةَ السرور، ثم أمر البطلَ قاسمَ بن سودون بأن يَضُمَّ إليه شجعان الفرسان المصريين وهم فى الزى الأحمر، وأمر البطل ذو الفقار سودون شقيقه بأن يضم إليه شجعان الفرسان الأتراك وهم فى الزى الأبيض، وأن يتحاربا فى معركة استعراضية بدون إراقة دماء.. فأطاع البطلان، وعلَتِ الفرسان ظهور الخيول، وحمحمت الخيول، وثار الغبار، وتلاقت السيوف فوق الدروع، ولعبت الفرسان بالرماح، فصاروا كأنهم يحملون غابات متحركة، وسال العرقُ وعلت الصيحاتُ، وتزلزلت الأرض من تحتهم.

ثم أمر السلطان بوقف الاستعراض القتالى؛ فقد خشى أن تقوم معركة حقيقية بين شجعان المصريين وشجعان الأتراك تنتهى بهزيمة الأتراك وطرده من مصر. وقد سرَّه البطلان غاية السرور. وتعجب من شجاعتهما وفروسيتهما غاية العجب..

ومنذ ذلك الوقت يا ولدى .. انقسم أمراء مصر وعساكرها إلى فرقتين: القاسمية وزيهم الأحمر، كلون الأهلى، والفقارية لهم اللون الأبيض، كالزمالك؛ والقاسمية هم المصريون، والفقارية هم الأتراك العثمانيون الذين غزوا مصر.

والغريب أن النادى الأهلى يا ولدى باسم نشأ من المصريين لمنافسة نادى المختلط المسَمَّى الآن بالزمالك الذى كان يتكون من المصريين والإنجليز غزاة مصر.

ولهذا يا ولدى أحببتُ الأهلى وصار فريقى المفضَّل لأنه نشأ مصريًا حميمًا لم يلَوِّثه الإنجليز المستعمرون لبلادنا الحبيبة، ومن هنا كانت له الشعبية الأولى فى مصر، واحتكار البطولات.. مع أن الزمالك الآن هو نادى مصرى صميم..

والفَرْقُ يا ولدى كبير بين التشجيع والتعصب الأحمق؛ فالتعصب بين القاسمية والفقارية كان تعصبًا أدى -فيما بعد-

إلى سفك الدماء وهدم الدور، وحرق القصور، وسَبْيِ الأحرار وبيعهم كعبيد، وقَهْر الأخيار، وفساد الوطن، وضياع الأمن والأمان.

وهكذا التعصب الأحمق يا ولدى يزيل العقل، ويفسد الوطن والدين، ويزرع الأحقاد والعداوة، ويَضُرُّ الأمة ويجعلها تحصد الندامة، ويؤخِّر الوطن عن غيره من الأوطان.

* * *

الحكاية الثانية

ثورة الفقراء عام ١١٠٧ هـ

في سنة سبع ومائة وألف هجرية يا أولادى لم يَفِضْ النيلُ كالمعتاد، بل فاض ثم هبط بسرعة لِنَقص الأمطار فى بلاد الحبشة وأوغندا والسودان وبقية الأقطار التى تمد النيل بمياهه العذبة. والنيل هو سبب حياة مصر بمشيئة الله تعالى.. ولولاه لكانت مصرُ صحراءَ جرداءَ.. ولهذا قدَّسَهُ المصريون القدماء، وكانوا يُنْشِدون فيه الأشعار، ويضعون له الأغانى، ويقيمون له الاحتفالات الفخمة، والأعياد الحافلة بكل ألوان البهجة والمتعة والفرح والسرور.. وعند وصول فيضانه إلى ذروته كانوا يترنمون فى معابدهم بالصلوات والدعوات للخالق الأعظم شكرًا له على رحمته إياهم، وإحسانه إليهم بإرسال النيل المقدس شريان حياتهم. ولم يكن صحيحًا ياولدى الحبيب أنهم كانوا يختارون فتاةً من أجمل فتيات مصر ثم

يُلبسونها أفضلَ الثياب، ويزينونها بأغلى المجوهرات، ثم يجعلونها عروسًا للنيل يزفّونها له بقذفها فى أعماقه، حتى يَرْضَى عنهم ويَزيد. هذه يا ولدى أكذوبة كبرى وضعها أعداء المصريين لينالوا من عظمتهم وسُمُوّ أخلاقهم وعدالتهم واحترامهم لحياة الإنسان ورجحان عقولهم على غيرهم.

ولو كان ذلك صحيحًا يا أولادى لكتبه المصريون على جدران معابدهم ومسلاّتهم وأهراماتهم وصحائفهم، ولكنهم لم يفعلوا ذلك مطلقًا رغم تسجيلهم كل صغيرة وكبيرة فى حياتهم. وكان المصريون أيضًا أعظم الأمم حضارةً ورُقِيًّا وعلمًا وخلقًا؛ ولذلك لم يعرفوا التضحية بالنساء والرجال والأطفال قربانًا لآلهتهم، كما كانت تفعل الأمم الأخرى فى العالم.

من أمثال أجدادُ الأوروبيين من اليونانيين والرومان!.

والنيل يا أولادى نهر مقدس؛ فقد ذكر رسول الله صلوات الله وسلامه عليه: «أنه من أنهار الجنة»، وواجبنا أن نحافظ عليه من القاذورات؛ فلا نلقى فيه نفايات المصانع ولا الصرف

الصحى ولا جثث الحيوانات النافقة. . وعلينا أن نمهد شواطئ النيل ونرصفها، ونزرع الأشجارَ والزهور على جانبيه. اعترافًا بقيمته فى حياتنا، وحفاظًا على صحتنا، ونشرًا للجمال وللخضرة فى حياتنا. .

فالشاعر يقول:

ثلاثة يُذْهِبْنَ الحَزَن؛ الماءُ والخضرة والوَجْهُ الحَسَنْ

المهم يا أولادى أنَّ نَقْصَ مياه النيل فى ذلك العام أثَّرَ فى حياة المصريين جميعًا. فبارت الأراضى، وعَزَّتْ الأقوات، ووقع الغلاء، وانتشر الجوع، وشاع الفناء، وكثرت الأوبئة، وعمَّ البلاء، وثار الفقراء رجالاً ونساءً وصبيانًا مِنْ عَضِّ الجوع لهم بأنيابه. . فتجمَّعوا فى مظاهرةٍ ضخمة وصعدوا إلى مقر الحكم فى القلعة. ووقفوا بحوش ديوان الحكم، وصاحوا من الجوع، فلم يعطف عليهم أحد، ولم يُنْصِفْهم الحكام، فأخذوا يقذفون مقر الحاكم بالأحجار. فركب الوالى بجنوده وطردهم. فنزلوا إلى ميدان القلعة، وكان يسمَّى ميدان الرميلة، حيث كانت مخازن حبوب الحكومة ملآنة

بالقمح والفول والشعير. فاقتحموا أبواب المخازن، ونهبوا ما فيها من أقوات.

والإسلام يبيح لمن سيموت من الجوع أن يقاتل مَن عنده الطعام حتى ينتزع منه ما يُبقى على حياته؛ لأن الضرورات تبيح المحظورات. وحياةُ الإنسان والحيوان مقدَّسة عند الله سبحانه وتعالى. ومَن أحيا نفسًا فكأنما أحيا الناس جميعًا، ومن قتل نفسًا فكأنما قتلَ الناسَ جميعًا.

وكانت هذه الثورة يا أولادى سببًا فى زيادة الغلاء العام. فارتفعت أسعار القمح والشعير والأرز والفول ارتفاعًا جنونيًا. ولم يوجد العدس بأى ثمن، وحصلت مآسٍ كثيرة، واختلَّ نظام الوطن، وهاجر الفلاحون من قراهم حتى امتلأت من شدة الجوع، واشتد الكربُ والبلاء بالناس، حتى أكلوا جِيَفَ الحيوانات.. ومات الكثيرون.. وخطف الفقراء الخبز من الأسواق ومن الأفران ومن على رؤوس الخبازين، حتى أنه كان يذهب الرجلان والثلاثة مع طبق الخبز يحرسونه من الخطف حتى يعودوا به من الفرن!!.

واستمر سوء الحال حتى عزل السلطان العثمانى الوالى من منصبه، وكان اسمه «على باشا»، واستمر فى حكم مصر أربع سنوات وثلاثة أشهر وأيامًا. . وجاء والٍ جديد على مصر هو «إسماعيل باشا»، فلما شاهد ما فيه الناس من الكرب والغلاء والجوع والفناء، أقْدَمَ على عمل إسلامى جليل؛ لأن الإسلام دين رحمة وأخوة؛ فالأخ الغنى مسئول أمام الله ثم أمام الحاكم عن مساعدة أخيه الفقير.

قال رسول الله صلوات الله وسلامه عليه لواليه على اليمن معاذ بن جبل: «خُذْ من أغنيائهم صدقةً فَرُدَّها على فقرائهم». ويقول صلوات الله وسلامه عليه: «ليس مِنَّا مَنْ بات شبعانًا وجارُهُ جائع إلى جانبه وهو يعلم». ولا يضيع الناس يا أولادى إلا بظلم الحكَّام وابتعادهم عن تنفيذ شريعة الله، والعمل بأحكام الإسلام.

من هنا ألهمَ اللهُ الوالى الجديدَ إسماعيل باشا بهذا الحل الإسلامى؛ فجمع الفقراءَ والشحَّاذين بقراميدان (الآن ميدان صلاح الدين بالقلعة)، ثم قام بتوزيعهم على الأمراء والأغنياء والأعيان؛ كلٌّ غَنِىٍّ على حَسْبِ حاله وقدرته. وأخذ جانبًا

من الفقراء والشحاذين، ولأعيان دولته جانبًا منهم. وعيَّن لهم ما يكفيهم من الخبز والطعام صباحَ مساء، إلى أن انقضى الغلاء، وهدأت النفوس، وشبع الجائع، وأمن الخائف.

وكان من الطبيعى يا أولادى أن يعقب المجاعة وعدم الاهتمام بالنظافة والوقاية الصحية الكثيرَ من الأمراض القاتلة المعدية؛ كالطاعون، والكوليرا وغيرهما. وكثر الموتى من الوباء العام، وفنيت أسر عن بكرة أبيها وأغلقت دورها. وتكدست الجثثُ فى الدور والطرقات، وعجز الفقراء عن تكفين ودفن أمواتهم، ولما كان الإسلام يكرم الإنسانَ حيًّا وميتًا، ويأمر بغَسل الموتى وتكفينهم فى الثياب النظيفة والصلاة عليهم وتشييعهم إلى قبورهم فى احترام وعظة واعتبار، ويثيبُ المسلمين على تشييعهم للموتى والصلاة عليهم والوقوف على قبورهم عند دفنهم. احترامًا للإنسان حتى لا يُلْقَى جسمانهُ فى الشوارع طعامًا للكلاب والوحوش وجوارح الطير.

لذلك أقدم الوالى الجديد إسماعيل باشا على هذا العمل الإسلامى النبيل: فأمر بيتَ المال بتكفين الفقراء والغرباء على

نفقة الدولة. فصاروا يحملون الموتى من الطرقات ويذهبون بهم إلى مغسلة السلطان عند سبيل «المؤمن» فى حى القلعة، وكذلك فعل أهلُ الخير من الأغنياء والأمراء والتجار وغيرهم؛ لأن الناس على دين ملوكهم وحُكَّامهم، والحاكم قدوةٌ لرعيته. فإنْ فَعَلَ الخيرات قلَّدوه، وإن ارتكب الشرَّ والظلمَ وأكَلَ الحرام فعلوا مثله.

وانقضى الوباء، وكفَّ الموتُ عن حصد الرقاب، وأراد إسماعيل باشا والى مصر أن يَشيع السرور بين رعيته بعد الجوع والغلاء والفناء، وأن يقتدِىَ بأخلاق الإسلام التى تربط الحاكم بالمحكوم برباط الرحمة والعدالة والإحسان والنصح والإيثار والتعاون فى الرخاء والشدة. فماذا صنع الباشا الصالح؟.. عمل حفلة عظيمة لختان ولده إبراهيم بك، وختن معه ألفين وثلاثمائة وستة وثلاثين غلامًا من أولاد الفقراء. وأمر لكُلِّ غلام منهم بكسوة كاملة من الثياب، ودينار ذهبى، فلِلَّه دَرُّهُ، ورحمة الله عليه من حاكم صالح ومسلم تقى.

* * *

وهكذا رأيتم يا أولادى ماذا كانت آثارُ انخفاض النيل فى هذا العام، من شِدَّةٍ وغلاءٍ وشُحٍّ فى الأقوات ومجاعة وثورة وفناء من الأمراض الوبائية؛ لأن زيادة النيل تأتى بالخيرات والرخاء والطمى الذى يجدِّد شباب أرض مصر، والمياه التى تطهِّر الترع والقنوات من المياه التى تعشش فيها الجراثيم والقاذورات؛ فينعدم الوباء العام، ويعيش أهل مصر فى رخاء وصحة وحسن أحوال..

فارفعوا أيديكم بالدعاء ليديم الله علينا نعمة النيل العظيم، وحافظوا على نظافته وتجميله تكونوا من السعداء.

* * *

الحكاية الثالثة

مقتل ياسف اليهودى

الشـعب المصرى يا أولادى كنهـر النيل؛ يظل شهـوراً فى انخفاضه ثم يفيض فجأة، ويزمجر بالقوة والعنفوان، فالشعب المصرى يظل صابراً على الآلام والظـلم حتى يقول الظالمون: لن تقوم له قـائمة بعـد ذلك. ثم فجأة ينهـض المصريون فى ثورة عاتية تكتسح الظلم والظالمين.

ومن هؤلاء الظالمين «ياسف اليهـودى» الذى كان مديرَ دار سك النقود المصرية فى عهد الوالى الظالم المخلوع على باشا. الذى جاء بعد الوالى الصـالح إسماعيل باشا الذى عـرفتم ما فعلـه من الخير للفـقراء والمحـتاجـين. وإليكم حكاية ياسف اليـهودى مـدير دار سك النقـود المصرية.. كـان هذا الظالم الفـاجـر.. يغش النقـود المـضـروبة من الذهب والفـضـة، والإسلام يـحرِّم الغِشَّ، ولم يقف ياسف عند حـدود الغش

فقط، بل أراد أن يَزيد آلامَ المصـريين بأن يفتح عليـهم أبوابًا جــديدة من المظـالم. فلم يقـنع بالسلـب والنهب لأمـــوال المصريين وأقـواتهم مِن قِبل الحاكم التركى والأمـراء المماليك وأتباعهم من المحاسيب، بل ذهب الفاجر إلى السلطان التركى الذى تخضع له مـصر فى إسلامبـول عاصمة دولة الخـلافة.
ولما ســأله السلطان عن أحوال مـصر، بالغَ فى إظهـار غِناها وحُسْنِ أحوال رَعاياها، وأنَّ العدالة تأخـذُ فيها مجراها. وأنَّ ما يؤخذ من أموال المصريين لخزانة الدولة هو شئ تافه حقير، وأن السلطان لـو أطلق يد ياسف فى مـصـــر، لعـرف وهو اليهودى الذى يعبد المال أن يضاعف أموال خزانة السلطان من أموال المصـريين المساكين. وحَـسَّنَ اليهودى الفــاجر للسلطان الساذج تغـييراتٍ يجريهـا فى مصر، تضــاعف على المصريين الظلم والظلمـات، وتكرِّه إليـهم الحـياة، وتجـعلهم يتـمنون الموت، ويبغضون يوم ميلادهم. وكان اليهودى الماكر الفاجر، يخدع السلطان الأبله بمكره وهو مـغتبط بمشورته الشـيطانية، ويعـتـقد أن تـلك الأموال التـى سيـأخـذها والأقـوات التى سيتنزعــها من أفواه المصريين الجوعى لن تقــابَل فى مصر إلا

بالغبطة والسرور.

وحينما جاء اليهودى الماكر الفاجر من عند السلطان ونزل فى ميناء بولاق بالقاهرة المحروسة. تلقَّتهُ اليهود فى مصر بالطبول والأعلام والموسيقى والأنغام والزغاريد والرقص والغناء والأناشيد.

أليس هو وزيرَ مالية مصر وزعيمها ومُحَقِّق آمالهم فى الغِنَى والثراء على حساب المصريين المساكين من مسلمين وأقباط. ورافقه اليهود إلى مقر الحاكم بالقلعة مشيِّعًا بالزغاريد والطبول والزمر وكأنه الفاتح العظيم. وقد كان فاتحًا فعلاً! فقد فتح الأحقاد والجراح فى قلوب المصريين.. وقُرئت الأوامر التى جاء بها أمام الوالى الصالح إسماعيل باشا، فلم يستطع مخالفة أوامر السلطان.. ووافق على تنفيذها رغم ما فيها من الظلم والبهتان.. ونادى المنادون فى شوارع مصر القاهرة بتلك الأوامر السلطانية، فاغتم الناس، وعَلَتْهُم الكآبة.. وفاضت بهم الأحزان. وانفجر فيهم طوفان الغضب.. وذهب الأعيان والتجار إلى الأمراء يعترضون على تلك الأوامر الظالمة. ويصفون لهم حالة الثورة التى تغلى فى

قلوب المواطنين. . وذهب الأمراءُ والحكامُ إلى مَقَـرِّ الباشا فى القلعة، فجادلهم فى تلك الأوامر، وأنها من السلطان، ورغم مـا فيـهـا من الإجـحاف فـإنه لا يسـتطيع مـخـالفة أوامـر السلطان. . وأنَّ المسئول عن ذلك هو وزير ماليـة مصر ومدير دار سك النقـود «ياسف» اليهـودى الذى عيَّنه الوالى السـابق على باشا، فقاموا جميـعًا قَوْمَةَ رجلٍ واحد، وطالبوه بتسليم المجـرم للقصـاص منه، وليكون عـبرةً لكل ظالم، ولإلقـائه للجمـاهير الثائرة، حتى تفـترسه، وتخمـد الثورة التى تغلى كالبركان فى الصدور، وتهدد بالويل والثبور وعظائم الأمور، فامـتنع الباشـا عن تسليمه لهم، وقـال: سنضعـه فى سجن «العـرقانة» ونـكتب فى أمره إلى الـسلطان، ونصف له ثورة الشعب المصرى، ضد هذه الأوامر الظالمة التى أوقعه اليهودى الماكر فى شَرَكها.

وحينما علمت الجماهير الثائرة بوضع اليهودى «ياسف» فى السجن، لم يُرْضِهِمْ ذلـك، بل تجمَّعوا حول سـجن العرقانة الرهيب، الذى كان يشبه سجن الباستيل فى باريس، وسبقت الجماهير المصرية الجماهير الفرنسية بالثورة. فذهبوا إلى سجن

العرقانة واقـتحموه، وأخرجوا «ياسف» اليـهودى وزير المالية المصرى الظالم، وكـان يرتعد كالفأر المزعور. وانهـالت عليه الجماهير والعساكر بالضـرب حتى أعدموه الحياة، وجرُّوه من رجليه وطرحـوه فى ميدان الرميـلة أمام القلعة، وجمـعوا له الحطبَ وأحرقوا جـثته، وكتب الباشـا بذلك للسلطان، فأمر بوقف الأوامر، وانتـصرت ثورة المصريين، وأمر البـاشا مدير دار سك النقود الجديد أن يُـراعِى اللهَ فى ضرب النقود، وأنْ يجعل عـيار الذهب اثنين وعشرين قـيراطًا، وأن يراعى وزن النقود ووضع عـلامة الدولة على النقـود المضروبة لمنع الغش والتـزوير. وتعهَّـد البـاشا بمحـاربة المزوِّرين؛ فـجاء بشـاهد محكمـة زور فى عقد بيع مـنزل فأمرَ بحلق لحـيته، وأركـبه جملاً، وجعل ظهرَه لِوجه الجمل، وجعل المنادى ينادى عليه وسط الجمـاهير: «هذا جزاء من يكـتب الحجج المزورة». ثم أمر الباشـا الوالى بنفيه إلى جزيرة الطينة. فـهدأت النفوس، وعاد المصريون إلى حياتهم وأعمالهم فى سلام.

* * *

الحكاية الرابعة

الأميـر الذكـى العـادل

كانت مصر يا أولادى تعيش تحت ظلمات ومظالم الأمراء المماليك والأتراك، كان النهبَ والسلب وسفك الدماء هو قانون الشيطان الذى يحكم به معظمُ هؤلاء الحكام شعبَنا الطيب العظيم. لكن مع ظلام الليل تظهر النجوم كأنها قطع الماس، ومع كثرة الأشواك تبدو الزهور والورود فى سحر خلاّب، وعبيرٍ ذكىّ يجعل الربيعَ الباسم يعانق القلوبَ والنفوس بالرحمةً والمحبَّة والسلام. . وهذا الأمير الذى نَحْكى لكم حكايته، هو زهرةٌ بين الأشواك، وضوءُ نجمٍ بين سُحُب الظلام. وهو العادل بين الظالمين، والذكىّ بينَ الأغبياء، العَطوف على الفقراء والمحتاجين. فلتكنْ يا ولدى الحبيب دائمًا عادلاً رحيمًا بالفقراء والمساكين، عظيمًا بعلمك وأخلاقك وشجاعتك وصفاتك الكريمة. ولتَحْذَرْ أنْ تضعَ ثقتك فى أى إنسان إلا بعد طول صحبة وتجربة وامتحان؛ فإن

سوء الظن من الذكاء والفطنة ورجاحة العقل يا ولدى الحبيب. والناسُ - كثيرٌ منهم - ذئابٌ فى صورة بشر، والبيتُ الذى لا يُحرس يتجرأ عليه الجبناء، والطعام الشهى يُغرى الجَوْعَى بأكل الحرام. والمالُ السايب يُغرى بالسرقة، والكنز المكشوف يغرى الصالحين بالخيانة. وإليك يا ولدى الحبيب هذه الحكاية التى رواها جدك المؤرخ العظيم الجبرتى: قال رحمه الله ورحم أمواتنا وأموات المسلمين:

أراد أحدُ كبار تجار الذهب والمجوهرات أنْ يحجَّ لبيت الله الحرام، ويزورَ قبرَ رسوله عليه الصلاة والسلام، وكان له صاحبٌ يثق فيه هو الخواجا على الفيومى؛ كان يتظاهر أمامه بالصلاح والتقوى وحُسن الأخلاق حتى انخدع فيه تاجر الذهب والمجوهرات، وحسبَ التراب ذهبًا، والمرَّ عسلاً. فجمع التاجرُ كلَّ ما عنده من الذهب والفضة واللؤلؤ والجواهر ومصاغَ أهله، ووضع كلَّ ذلك فى صندوق مُحْكَم الغَلْقِ، وذهب التاجرُ بصندوق مجوهراته إلى الصديق المخادع الخواجا على الفيومى بمنزله بسوق مرجوش، وأعطاه الصندوق أمانةً عنده حتى يرجع بسلامة الله تعالى من أداء

فريضة الحج . . وأخـذ التاجر مفتـاح الصندوق معه، وكذلك قائـمة بكل مـا يحتـويه الصندوق من مجـوهرات، وبيّن فى القائمـة أشكالَ وعدد وثمن القطع . وودّعه صـاحبه الخـواجا على الفيومى قائلاً له :

- لا تقلق يا أخى على مجوهراتك، فهى عندى فى الحفظ والصـون، وهى أمانة الله عندى، وخـيانةُ الأمـانة من أعظم الذنوب . وأنا رجل أخاف الله وأتقيه وأطلب مثوبته ورحمته، ولا حـول ولا قوة إلا بالله . . وسـوف يعـزُّ علىَّ فـراقك يا صديقى العزيز وأخى الكريم . .

وتظاهر بالبكاء وقلبه يرقص طربًا .

فأجابه صديقه بتأثر :

- أنا أعرف حُسْنَ أُخُوَّتك وعظيمَ صداقتك، وأعرفُ عنك الصلاحَ والتـقوى والأمانة يا صـديقى الخواجـا على؛ ولهذا وضعتُ عندك كل ثروتى وما أملك من متاع الدنيا .

- نعم . . نعم . . لقـد وضعـت الأمانة عند الأمـين . يا صديقى العزيز . . فلا تغفل عن دعائك لى فى بيت الله الحرام

وعند رسوله عليه الصلاة والسلام.

- سوف أدعو لك بخالص الدعوات، وإلى اللقاء يا صديقى الأمين.

* * *

وسافر التاجر إلى الحجاز، وأدَّى فريضة الحج، وزار مدينة الرسول ﷺ، وطاب له المقام هناك.. ثم عاد بعد عام مع القافلة المصرية التى تضم حجاجَ بيت الله الحرام. وجاء الأهل والجيران والمعارف للسلام عليه وتهنئته بحج بيت الله الحرام والعودة بسلامة الله.. وانتظر الصائغ العائد من الحجاز زيارة صديقه الأمين له، وتهنئته بسلامة الوصول وأداء فريضة الله. ولكن ها هى ذى الأيام تمر والصديق الخواجا على الفيومى لم يحضر. فقال التاجر: لَعَلَّهُ مريض، فلأذهب أنا إليه، وأعطيه هديته التى جئت بها له من الحجاز من التمر واللبان والكحل.. ولفَّ الهدية فى منديل جميل، وذهب إلى صديقه ووضع المنديل بين يديه وسَلَّم عليه، وهنا حدثت المفاجأة المذهلة يا أولادى.

فقد نظر الخـواجا على الفيومى لصاحبـه تاجر المجوهرات وقال له وهو يتظاهر بعدم معرفته:

- من أنت يا هذا؟ فـأنا لا أعرفك، ولست صـديقًا لى، وليس بـيننا نسب أو قــرابة أو جــوار حــتى تأتينى بـتلك الهدية؟!... فقال التاجر:

- أنا «عـبد الله» الجـواهرجى، صـاحب صندوق الأمـانة الذى وضعتُه لديك عند ذهابى لأداء فريضة الحج.

- أنا يا هذا لا أعـرفك، ولم أشـاهد وجهك قـبل الآن، وليس عندى لك أمانة، فـأنت تجمع بين الكذب وقلة الحـياء والجرأة.

- أنا كاذب وقليل الحياء يا خواجا على؟!

- بكل تأكيد.

- أتريد نهب مـجـوهراتـى ومـالى أيهـا المخـادع؟ يا من خدعنى بطول لحيته وطول مسـبحته وبالصلاة وكثرة التسبيح والتظاهر بالصلاح وتقوى الله؟!

- يا هذا، هل عندك شهود يشهدون لك بما تقول؟!

- شاهدى هو اللهُ ربُّ العالَمين والمنتَقِمُ مِنَ الظالمين المخادعين.

- سوف أعطيك مجوهراتك إذن يوم القيامة أمام الله سبحانه وتعالى.. فاذهب من وجهى الآن واخرج من بيتى قبل أن أسَلِّط عليك كلابى الضاربة فتنهش لحمك الطرى. أو أسوقَ عليك ثورى النطّاح فيحطم ضلوعك، أو ألقى عليك حجرًا من فوق سطح بيتى فأعدمك الحياة، ثم أقول للقاضى: قتلتْه الكلابُ فاقتلوها، أو نطحه الثور فاذبحوه، أو الحجر سقط عليه بفعل الرياح فحاكموا الريح. وهكذا تفقد مالك وتضيع حياتك هى الأخرى بدون عقاب.

- يا لكَ من وغد فاجر ومجرم حقير ولص جرئ.. بل أنا تاركك، وخالعٌ صحبتك كما أخلع نعلى من قدمى.. واللهُ تعالى العادل الرحيم سوف يردُّ لى مالى.

- ها.. ها.. مع السلامة وأغلق الباب خلفك.

* * *

ضاقت الدنيا على سعتها أمام عبد الله الجواهرى، ونصحه

بعضُ المعارف بالذهاب إلى الأمير العادل «كجك محمد أوده» باشا، فذهب إليه ووقف بين يديه، وعرض القصة عليه، فأمره الأمير بأن يختبئ بداخل حجرةٍ فى داخل مجلس حُكمه، وأرسل للصديق الخائن على الفيومى، فجاء يرتجف رعبًا وفزعًا وتصطك أسنانه من الخوف.. فلما رآه الأمير كجك أظهر له البِشْرَ فى وجهه والسرور بمقدمه عليه، وحيَّاه أحسن تحية، وآنسه بالكلام الحلو:

- شرفتنا يا خواجا على، وسعدنا بحضورك إلينا.

- بل أنا يا باشا السعيد بحسن استقبالكم لنا وعطفكم علينا، وكرمكم نحونا.

- عظيم. عظيم. أيها الرجل الصالح التقى، فقد سمعنا عن تقواك وصلاحك وحسن عبادتك وشدة ورعك، فقلنا نتبارك بجلوسك معنا وحضورك إلينا.

- شرفٌ عظيم لى يا مولانا الباشا الأمير؛ فأنا عبدكم وخادمكم الأمين.

- عظيم عظيم صديقنا على الفيومى. عظيم. كم أنا

معجب بتقواك وأمانتك وصلاحك. . وأرى معك مسبحة من المرجان الغالى النادر الوجود تُسبِّح عليها لله سبحانه وتعالى.

- وهل أسبِّح اللهَ الخالق العظيم إلا على أثمن المجوهرات يا مولانا الباشا.

- ها. ها. يا لك من رجل تخاف الله، وترجـو رضاه يا خواجا على. . ولكـن أرِنى هذه المسبحة كى لُسبِّحَ عـليها أنا الآخر يا صديقى.

- ها هى يا مولانا. . اقـبلها لو تكرمتً يا سيدى الـباشا هديةً متواضعة من عبدك المخلص وخادمك الأمين.

- «فى سره» يا لك من مجرم أثيم. تُسبح اللهَ على مسبحة مسروقـة. وتهدى ما لا تملك. «يرفع صوته»: هدية مـقبولة أيها الخواجا.

وقام الأمير وذهب إلى داخل قـصره. ونادى على خادم له وقال له:

- خذ خادم الخـواجا على معك. . وخذ هذه المسـبحة. . واذهب إلى بيت الخـواجـا. . وقف عند باب الحـريم، وقل

لهم: لقد اعترف الخواجا على عند الأمير كجك بالصندوق، وأعطهم المسبحة كعلامة على صدقك فى قولك، فحينما يشاهدان المسبحة والخادم معك فلن يَشُكُّوا فى قولك.

- أمرك مطاع يا سيدى الأمير.

ثم رجع الأمير كجك إلى ديوان الحكم وقال للخواجا علىّ: بلغنى أنَّ رجلاً من تجار المجوهرات أودع عندك صندوقًا أمانة ثم طلبه منك ردَّه، فأنكرتَه؟!

- أنا!.. وهل أخون الأمانة وأنا الرجل الصالح الذى يخاف من الله ويرجو رحمته.. لا وحياة رأسك العظيم يا مولانا الأمير ما حصل هذا.. إنه رجل خَرْفان ذهلان اشتبه عليه شكلى فظنَّ أننى الرجل الذى وضع عنده أمانته، مع أنه لا يعرفنى ولا أعرفه ولم أره قبل ذلك.

- إنَّ رأسى عندك ذو قيمة كبيرة، ولهذا حلفتَ بها على صدقك يا خواجا على. مع أنه لا يجوز فى الإسلام الحلف بغير الله تعالى.

-طبعًا. طبعًا يا مولانا الأمير أدام الله سعادتك ومدَّ فى

عمرك.. وعفواً لم أكن أعرف أن الإسلام يحرِّم الحلف بغير الله تعالى.

تظاهر الأمير بتصديق الخائن، وتبسَّط معه فى الكلام، وبعد قليل حضر خادم الأمير وخادم الخائن وقد جاءا بالصندوق على حمار فوضعاه بين أيديهم.. فامتقع وجه الخائن وصار فى صفرة الكهرمان، وكاد يغمى عليه.

فصاح الأمير:

يا حاج عبد الله، يا جواهرى، اخرج من مخبئك واحضر إلينا.

فجاء سريعًا.

فقال له:

أهذا صندوقك؟

- نعم يا مولانا الأمير.

- أعندك قائمة بما فيه تثبت دعواك؟

- عندى ومعى يا مولانا الأمير، ومعى مفتاح الصندوق أيضًا.

- عال. عال. افتح صندوقك واجرد محتوياته.

- ولما فتح الصندوق وجد أمواله كاملة ما عدا المسبحة المرجان..

- كل مجوهراتى موجودة يا مولانا ما عدا مسبحة من المرجان الأحمر!.

- أليست هى هذه؟

- نعم يا مولانا.. هى بعينها.

- كان يسبح عليها صديقك الخائن، وكانت هى الأمارة التى أرسلتُها مع خادمى وخادمه لنسائه فأحضرن الصندوق.

- يا لك من أمير شديد العدل والذكاء يا مولانا الأمير كجك!

- الحمد لله الذى ردَّ لك مالك يا حاج عبد الله.. واحذر من مصادقة الخائنين.. وتقوى المخادعين الكاذبة.. واحفَظْ سرك فى صدرك تكون مالكًا له.. ولا تضعه عند الآخرين فتكون تحت رحمتهم.. وضع أمانتك عند الأمناء تُحفظ لك.

- لك الشكر يا مولاى الأميـر. . ومنذ الآن لا صداقة مع المخادعين.

- والتفـتَ الأميرُ إلى الخـواجا الخـائن بنظرة كأنهـا ألسنة النيران، وهو يكاد يموت فى جلده من شدة الخوف. ويتوقع أن يُنزل به الأمير أشدَّ العقاب جزاء خيانته. ثم قال له:

صاحبُ الأمانة أخذها ومضى. فلماذا تجلس؟!

فقـام الصديق الخائن وهو ينفضُ عنه غـبارَ الموت، وذهب وهو فى غاية الذل والخزى والخجل.

* * *

تصـرَّفَ الأميـرُ مع هذا الخائـن الذى حلف برأسه كـذبًا، وخان أمانة الصديق، كـان هذا التصرف مع هذا الذى يتظاهر بالتقوى والصلاح. أعظمَ دليل على سموّ أخلاق هذا الأمير، أراد بعفـوه أن يُصلح شأن هذا الخائن، وأن يراجع نفـسه فى سلوكياته.

فقد قال رسول الله ﷺ: «مَن ستــرَ مسلمًا فى الدنيا ستره الله فى الدنيا والآخرة»، وهذه فضيحة وقد سترها هذا الأمير ولم يشأ فــضيحــة هذا الصديق الخائن الذى يتظاهر بالتــقوى لعله يتوب من ذنبه، والله تعالى يقبل توبة التائبين.

* * *

الحكاية الخامسة

الأمير الرحيم بالفقراء

الناصر لشريعة الإسلام

هذا الرجل يا ولدى الحبيب - حفظك الله تعالى - من خير أمراء المماليك الذين حكموا مصر قبل الحملة الفرنسية وهو الأمير عثمان بك ذو الفقار. ولِحُبٍّ شعبنا له يا ولدى أرَّخوا بعام نفيه من مصر. وجعلوا عام خروجه من مصر تاريخًا لأخبارهم ومواليدهم وحوادث الحياة التى تقع لهم؛ فكانوا يقولون: جرى كذا سنة خروج عثمان بك، وولدت سنة خروج عثمان بك أو بعده بكذا سنة أو شهر.

تولى الأمير عثمان إمارة مصر سنة ١١٣٨ هـ. وقد تولى إمارة حُجَّاج مصر فى أعوام ١١٥٣هـ، ١١٥٤هـ، ١١٥٥هـ، أى أنه حجَّ بيتَ الله الحرام ثلاث حجات. وفى حجته الأخيرة عمل وليمةً كبيرة فى بيته، وحضر إليه الوالى التركى من القلعة إلى بيته ومعه الكثير من الهدايا والأموال لعثمان

بك. ولم يسبق أن نزل الوالى التركى إلى بيت أحد من الأمراء المصريين قبل نزول يحيى باشا الوالى التركى لمنزل عثمان بك. وإنما كانوا يعملون لهم الولائم فى القصور التى على النيل مثل قصر العينى وقصر المقياس.

وبعد أن عاد من حجته الأخيرة فى أوائل عام ١١٥٦هـ انتهت إليه الرياسة وارتفع على كل أمراء مصر. ونفَّذ أحكامه عليهم رغمًا عنهم. وعمل فى بيته دواوين يجلس فيها للحكم لإنصاف المظلوم من الظالم. وفتح مجلسَ حُكمه للعامَّة من شعبنا الطيب الذى كان يعانى القهر والظلم من الأمراء المماليك الظالمين المجرمين. وجعل لقضايا النساء ديوانًا خاصًا. فهو قد سبق الفرنسيين فى عمل دواوين لرعاية مصالح الشعب المصرى. وكانت أحكامه كلها عادلة لا تخرج عن قوانين الشريعة الإسلامية ونصوصها المحقِّقة للسعادة والأمن والأمان فى الدنيا والآخرة.

وكان لا يقبل الرشوة ويعاقب المرتشين؛ لأن الرسول ﷺ (لعنَ الراشى والمرتشى والرائش)؛ الراشى هو الذى يدفع نقودًا للقاضى أو للموظف الحكومى ليعطيه غيرَ حَقِّه أوْ يسلبَ

حقوقَ الآخرين ويعطيـها له أو يعينه فى ظلمه. والمرتشى هو الذى يقبل الرشـوة من أمير أو قـاضى أو موظف أو مسـئول كبير، والرائش هو الواسطة بين الراشى والمرتشى.

فالإسلام ديـن العدل والرحمة، والرشـوة تشيع الظلمَ فى المجتـمع. والظلمُ إذا شاع فى مـجتـمع أهلكه، أو فى دولة حطمها ونصر عليها عـدوها، والسماءُ تهتز من الظلم، واللهُ سبحانه وتعالى ينتقم من الظالمين أشد الانتقام.

وكـان عثـمان بك يراقب الأسـواق بنفـسه حـتى لا يرفع التجَّارُ الأسـعارَ على المواطنين. وحدّد الأسعـارَ، ووزْنَ الخبز وصفاته. ولم يترك سلعةً حتى حدَّد سعرَها مثل الشمع الذى كان يُسـتخدم للإضاءة، كـما حدد وزنه أيضًا. ومـثل الفحم الذى يستخدم للوقود وكل أنواع السلع رحمةً بالفقراء وشفقةً عليهم. وتحـقيقًـا للرخاء بين أفراد الشـعب. وكَبْحًا لجـماح جشع التجار الذين يريدون بيع السلع بأضعاف أسعارها لأكل أموال الناس بالباطل وإحراق الفقراء بغلاء الأسعار.

كمـا منع عثـمان بك المحـتسبَ - وهو المراقب لـلأسواق

وللأسعار ولدقة الموازين - منعه من قبول الرشوة من التجار والإفساد فى الأرض.

كما طارد فى قسوة شهود الزور فى المحاكم؛ وهم الشهود الذين كانوا يقفون بأبواب المحاكم يشهدون بالزور لصالح من يدفع لهم النقود. وشهادة الزور مِن أكبر المعاصى والذنوب، ويعاقب اللهُ عليها أشَدَّ العقاب يوم القيامة لما فيها من إضاعة الحقوق ونصرة الظالم على المظلوم.

ولم يُعْرَف عنه يا ولدى أنه صادرَ مالَ أحدٍ ليستولى عليه كما كان يفعل الأمراء المماليك. ولم يأخذ شيئا من أموال الورثة، كما كان يفعلُ الأمراء المماليك الذين كانوا إذا علموا بوفاة رجلٍ غَنِىٍّ سارعوا إلى بيته لاقتسام تركته مع ورثته بغير حق. هؤلاء الأمراء الظَلَمة يا ولدى لم يكتفوا بأكل أموال الأحياء ظُلْمًا وعُدْوانًا ونهبًا وسلبًا ومصادرةً، بل شاركوا الورثة أيضا فى ميراثهم، فأكلوا أموال اليتامى ظلمًا وعدوانا أيضًا.

ومما يدل على عظمة أخلاق هذا الأخير يا ولدى وشدة

تقواه وخوفه من الله سبحانه وتعالى؛ أن السلطان العثمانى - حاكِمَ مصر والغالبية العظمى من أقطار المسلمين من إسلامبول عاصمة الخـلافة الإسلامية العثمـانية. وهى بلاد تركيا الآن- هذا السلطان الظالم أصدر أمرًا ببطلان مرتبـات الباشا التركى فى مـصر وكبـار الأمراء الممـاليك فيـها. وطلب منهـم أخذ مرتباتـهم من الشعب المسكين بضرائب جديدة تُفـرض عليه. رفض الأميـر عثـمان الصالح قـبول مـرتبه الذى أُخـذ ظلمًا وعدوانًا من شعبنا المغلوب على أمره. وقال: هذه الأموال يا باشا يا ممثّل السلطان فى مصر جمعـتموها من دموع الفقراء. ودموع الفقراء نار تأكل القـلوب والأكباد. وهى سُمٌّ مهلِك. ويوم القيامة هى نيران السعـير التى وقودها الناس والحجارة. فلا حاجة لى فيها وإنْ أكلتُ التراب.

وكان عـثمان بك يا ولدى عالى الهـمَّة، حَسَنَ السيـاسة، شديد الذكاء والفطنة، يحب إقامـةَ العدل والحق فى الرعية. وهابته الأشرار من العرب، وأمنتْ الطرق البرية والبحرية فى أيامــه. وشـاع الأمن والأمــان وأمن الناس على أمــوالهم وأنفسهم وأعراضهم.

وله حُسْنُ تدبير للأمور، طاهر الأخلاق والأعمال، وكان لا يجالس إلا أصحاب الفضائل من علماء الأزهر الشريف وغيرهم مثل الشيخ الجبرتى والد مؤرخنا العظيم عبد الرحمن الجبرتى. والشيخ عبد الله الإدكاوى، والشيخ يوسف الدلجى، وسيدى مكى، والسيد أحمد النخال؛ لأن صاحبك يا ولدى هو عنوان على حسن عقلك وحسن أخلاقك. فإن صاحبتَ أصحاب العلم والأخلاق كنت منهم. وإن صاحبتَ الأشرار كنت منهم، وعادت عليك صحبتك لهم بأبلغ الأضرار.

وكان هذا الأمير يا ولدى محبًا للعلم لا يتكبر عن أخذ العلم من العلماء. فقرأ على الشيخ حسن الجبرتى كتاب «تحفة الملوك» فى الفقه، وكتاب «مقامات الحريرى» فى الأدب. وألَّف له الشيخ حسن الجبرتى مناسك الحج المشهورة فى كتاب صغير. والعلمُ يا ولدى يرفع العالم إلى أرفع الدرجات.

والجهل يقتل الفضائل ويجعلُ الجاهل فى أدنى الدرجات.

قال الشاعر:

بِالعلم والمالِ يَبْنَ الناسُ مُلْكَهُمُ

لَمْ يُبْنَى ملكٌ على جهلٍ وإقلال

فالعلم والمال سلاحان عظيمان لخوض معارك الدنيا والآخرة، وبلوغ أعلى الدرجات فيهما. جعلك الله يا ولدى من العلماء الأغنياء الأتقياء العباقرة الذين يقودون الشعوب إلى السعادة والفلاح.

وكان عيب عثمان بك الوحيد حدَّةً فيه؛ فإذا قال كلامًا أو عاند فى شئ لا يرجع عنه. وهذه الحدة والتمسك بالرأى ولو كان خطأ والعناد فيه من العيوب الكبار؛ لأن الرجوع إلى الحق فضيلة.

والرجل العظيم إذا ظهر له خطأُ رأيه عاد إلى الصواب؛ هكذا فعل الرسول ﷺ وكبار الصحابة وعلماء الإسلام. والكلمات اللينة يا ولدى تكسر الغضب، وتكسب القلوب. فاللهُ تعالى يقول لرسوليه الكريمين موسى وهارون حينما كلَّفهما بالذهاب إلى فرعون مصر جبَّار عصره وأعظم ملوك زمانه، الذى ادَّعى الألوهية وطلب من شعبه عبادته من دون

الله الواحد القهّار. قال تعالى لرسوليه **﴿فقولا له قولا ليّنا لعلّه يتذكّر أو يخشى﴾** لم يقل لهما: احتداً عليه أو العناه وهو عدو ربّ العالمين، مع علم الله سبحانه وتعالى بموته على الكفر غرقًا بقدرته سبحانه وتعالى التى لا تقهر، والتى لا تقف أمامها قدرة.

ولم يستطع الأمراء الفسدة الظلمة احتمال هذا الأمير العادل الرحيم طويلا يا ولدى. فنقموا عليه منعهم من الظلم والنهب والسلب وقبول الرشاوى، وحسدوه على ارتفاع مكانته وحبّ الشعب له. وزاد حقدهم عليه بعد أن نصر عليهم شيخَ العرب همّام أمير الصعيد وزعيم قبائل هَوّارة العربية بالوجه القبلى.

فقد وقع خلاف بين أمير الصعيد شيخ العرب همام، وبين إبراهيم جاويشر كبير الأمراء الذين يحقدون على عثمان بك والمنافس الأول لعثمان بك فى حكم مصر. وقع الخلاف بينهم على بلدة برديس فى صعيد مصر التى تدخل فى أملاك شيخ العرب همام ويريد إبراهيم جاويش الاستيلاء عليها،

وكان هذا آخـر عام ١١٥٦ هـ، ووقف عثمـان بك مع شيخ العرب همام ضد إبراهيم جاويش وباقى الأمراء المماليك.

فاتفق إبراهيم جـاويشر مع بقية الأمراء علـى الهجوم على عثمان بك وهو طالع إلى الديوان فى القلعة فى يوم الخميس، فعملوا له كمينًا فى الطريق. فلما ركب مع إسماعيل بك أبو قلنج فى صـباح يوم الخمـيس هجمـوا عليه وضـربه أحدهم بالسيـف فزاغ منه وانجرح أنفـه، وفرَّ منهم. فـهجـموا على بيوت أتـباعه وبيـوته ونهبـوها وأحرقـوها بالنار. وخـرجوا بالمدافع والرصاص فى كل جهـة وحاصروه فى بعض بيوته، ونقبـوا عليه الجدار. فأمـر بشدِّ جملٍ سـريع وخرج من باب سِرِّىّ وترك البيتَ بما فيـه ولم يأخذ إلا بعض النقود. وطلع من وسط المدينة ومرَّ بالغورية ودخل من مرجوش وخرج من باب الحديد وذهب إلى بولاق. وعـزل فى جامع السلطان أبو العلا. وبعد خروجه دخل العسكر بيـتَه ونهبوه ومبوا الحريمَ والجـوارى. ولم يزالوا فى النـهب حـتى قـلعـوا الرخـام والأخشـاب وأوقدوا النيـران فى البيت. وقُـتل خلق كثـير، واستمـرت النار مشتعلة لمدة يومين، وكان حـدثًا رهيبًا. علم

بذلك عثمان بك ففـر هاربا إلى الصعيد ثم إلى سيناء ثم إلى عاصمة الخلافة العثمانية إسلام بول.

ولما وصل إلى إسلام بول قابله كـبار رجال الدولة وأنزلوه ببيت واسع بأتباعـه وخدمه، وعينوا له كـفايته من كل شئ، واجتمع بالسلطان وسأله عن أحوال مصر.

السلطان: كيف أحوال مصر أمير عثمان؟!

الأمير: فى أسوأ الأحوال يا مولانا السلطان.

السلطان: ومـاذا فعلت مـع إخوانك حـتى أخرجـوك من حكم مصر منفيًا إلى عاصمتنا؟

الأمـير: لكونى أقـول الحق وأقيـم الشرْعَ فـعلوا معى مـا فعلوه.

السلطان: لعنة الله عليهم. لعنة الله عليهم. من أجل هذا تآمَروا عليك و أخرجوك من مصر؟!

الأميـر: نعم يا مـولانا السلطان، ونهبـوا من بيتى أربـعة آلاف كيس من النقود، ونهبوا نسائى وجوارى.

السلطان: نكتب مرسـومًا لهم بإحضار مـا أخذوه منك يا عثمان بك.

الأميـر: أدام اللهُ عزَّك يا مـولانا السلطان.. ولكنْ عليك بتدارك مصر قبل أن يُضيِّعَها الظلمُ منك يا مولانا السلطان.

السلطان: نفعل.. نفعل ذلك إن شاء الله تعالى.

* * *

واستـمر عـثمان بك فى منفـاه حتى مـات عام ١١٩٠هـ رحمه الله رحمة واسعة، وأسكنه فسيح جناته.

الحكاية السادسة

شيخ العرب همَّام أمير الصعيد

هذا الرجل يا ولدى الذى يحكى لنا مؤرخنا العظيم الجبرتى حكايته: هو أمير الصعيد شيخ العرب «همَّام» الكريم المفضال زعيم عرب الهوّارة قِبْلى. ملجأ الفقراء والأغنياء والأمراء والغرباء، عظيم بلاد الصعيد. ومَن خيرُه وبِرُّه عَمَّ القريبَ والبعيدَ. وقد اجتمع فيه من الكمال ما هو مضرب الأمثال. ويقع الصعيد تحت سيطرته من المنيا إلى أسوان. وهو حامى الصعيد من ظلم أمراء المماليك؛ ففى عهده شعر الفلاحون فى جنوب مصر بالأمان والاستقرار، بخلاف الفلاحين فى الوجه البحرى الذين كانوا فى أسوأ الأحوال من نهب أمراء الممالك حكام مصر لهم وهجوم العرب سكان البوادى عليهم، ونهب أموالهم ومواشيهم وأقواتهم.

وشيخ العرب هَمَّام يا ولدى يفرح بالضيوف ويلقاهم

بالسـرور والإكـرام. ويقـوم خَـدَمُـه بإرشـادهم إلى أمـاكن إقامتـهم، وهى قاعات واسعـة نظيفة مفروشـة بأفخم الأثاث والأسِـرَّة والمراتب والوسـائد والأغـطيـة. ثم يسـرع الخـدم فيُـحضرون لهم مـا لذَّ وطاب من لحوم الإبل والبـقر والغنم والماعـز والطيـور وطواجن الأرز المعـمَّـر، وقِـصـاع الثـريد والكسكسى وأطبـاق الخـضـار والحلوى وسـلال الفاكـهـة. ويحضـرون لهم أباريق الماء للغُسْل وللوضوء، والشـموع فى الليل للإضاءة.

وكرمـه يعمّ الضيوف الذين يـعرفهم والذين لا يعـرفهم، وضـيوفـه فى خيـر حـال ولو مكثوا عـنده الشهـور الطوال والأعـوام. وإن أراد الضـيوف السـفـر ودّعهـم خيـر وداع. وأفاض عليهم هداياه وانصرفوا شاكرين. وإن كان ضيفه جاء يطلب البرَّ والإحسان أكرمـه وأعطاه أضعاف ما يرجوه ويأمل فيه.

ومن الناس من كـان يذهب إليه فى كل عـام فيـرجع من عنده بما يكفـيه وأولادَه طوال الـعام. وهذا شـأنُه مع جمـيع الناس. وإذا كـان الوافـدُ عليـه من أهل العلم والفـضل أو

الأمراء والأكابر قابله بما يليق بمكانته وأنزله منزلته.

وكان يُنعم على ضيوفه والوافدين عليه بالجوارى والعبيد والسكَّر والقمح والتمر والعسل والسمن. وكان شديد الذكاء قوى الذاكرة. لو ورد عليه إنسان مرّة واحدة وغاب عنه سنين ثم لقيه وخاطبه عرفه وتذكَّره ولم تغب عنه ملامحه.

ومطابخه التى يصنع فيها الطعام للضيوف والوافدين تعمل طوال ساعات الليل والنهار. حتى إذا جاءه ضيف فى أىّ ساعات الليل والنهار وجد طعامه جاهزًا. وفى قصوره من الخدم والمماليك والجوارى الآلاف.

وكان له من الثيران لحرث حقول قصب سكر شركة قفط إثنا عشر ألف ثور. وهذا بخلاف الثيران المعَدة للسواقى والطواحين والجاموس والأبقار الحلاَّبة وغير ذلك.

وله من مخازن الغلال والسكّر والتمر بأنواعه والعجوة مالا يُعَدُّ ولا يُحْصَى. وكان القادم من بعيد يشاهد جبال القمح وقد اخضَّرت بنزول المطر عليها واختلاطها بالتراب فيظنها جبالاً حقيقية خضراء. وله عشرات الآلاف من الجنود وحملة

الأقواس والسهام، وله دواوين للمحاسبات ورصد الصادر والوارد يعمل فيها عشرات الكتبة من الأقباط والمحاسبين والمحصلين لا يتوقف عملهم ولا كتابتهم ليلاً ولا نهاراً.

وهو يجلس معهم حصّةً من الليل إلى الثلث الأخير على مجلس خاص به يحاسب ويُملى ويأمر بكتابة المراسيم والمكاتبات، لا يغفل عن كبير الأمور لا صغيرها.

ثم يدخل إلى زوجاته فينام بعض الليل، وبعد ذلك يقوم إلى صلاة الفجر وإذا جلس بين الأصدقاء وأصحاب الحوائج والضيوف، وضع بجانبه قطنًا نظيفًا وإناء ماء ورد. فإذا سلّم على بعض الأجلاف غير أصحاب الطهارة والنظافة مسح بالقطن المبلل بماء الورد عينيه وشمّها بأنفه للقضاء على رائحتهم الكريهة

وله هدايا يرسلها للعلماء من رجال الأزهر الشريف فى القاهرة ولأصحاب المناصب وعلية القوم. وإذا جاءه عالم لزيارته أكرمه غاية الإكرام وأنعم عليه بالسكّر والغلال من قمح وفول وعدس والجوارى والعبيد والأموال. وعرف له فضله كما فعل مع والد الشيخ الجبرتى وأستاذه وشيخه السيد

محـمد مرتضى وأمثـالهم من العلماء وفضـلاء القوم. وهذا الرجل العظيم يا ولدى كان كهفًـا لأهل مصر، وواحةً ظليلة لهم، وقلبًـا عطوفًـا على الفـقـراء والمحتـاجين والغـرباء والضـيوف، وملـجأً لكل ملهـوف أو مطارَد من الأمـراء أو المظلومين.

ولِحُسْنِ أعماله وكـرمه وشجاعته وحُسْن أخلاقـه وشهامته ووطنيته الأصيلة وعدله وإنصافه ودينه وطهارته ترنّمت القلوب بمحبـته. ووضع الله سـبحانه وتعـالى له القبـول فى النفوس والقلوب. ولكن يا ولـدى هذه الدنيـا لا أمان لهـا ولا بقـاء لنعيمها، وإذا اكتمل القمر صار إلى النقصان.

فقـد تولَّى حُكْمَ مصر أمـيرٌ شديد الـطموح هو على بك الكبير من كبار أمراء المماليك. وهذا الأمير كان يريد الانفراد بحكم مصر فلا يشاركه فـيها منافس ولا يكون له فى ربوعها شريك.

وكان يحقد على الشيخ هَمَّام فى سيطرته على صعيد مصر من المنيا إلى أسوان، وصـداقته لمنافسه صـالح بك القاسمى.

ومدّه له بالأموال والرجال حينما تحارب معه.

ولهذا حينما فَرِغَ على بك الكبير من منافسه صالح بك وغدره به بعد صلحه معه. تفرّغ لشيخ العرب همام، وتابعَ إرسالَ الحملات العسكرية للقضاء عليه. وأرسل حملةً عسكرية بقيادة قائده المظفر محمد بك أبو الذهب، ولجأ إلى المكر والخداع مع أقارب الشيخ همام.

فقد وعد ابنَ عمّ الشيخ همام الشيخ إسماعيل أبو عبد الله برئاسة الصعيد إذا خان ابنَ عمه الشيخ همام.

وصدّق الشيخ اسماعيل وعودَ القائد المخادع، فتخلّى عن ابن عمّه وانضمّ هو ورجاله لأعدائه.

وحينما نظر شيخُ العرب همّام إلى هزيمة أنصاره من أمراء المماليك الذين كانوا يعيشون فى رحابه فى معركة أسيوط، مع أنه أمدّهم بكل ما يحتاجون إليه من الأموال والسلاح والرجال. ورأى خيانة أقاربه له وتخلّيهم عنه وهو أحوج ما يكون إليهم، وموالاتهم أعداءه. أدرك أمير الصعيد الهمام حينذاك أن الحظّ قد أدار له ظهره واقتربت نهايته. فترك دياره

وأمواله فى فرشوط وذهب إلى جهـة إسنا، فمات فى الثامن من شعبان عام ١١٨٣هـ - أول نوفمبر سنة ١٧٦٩م.

مات قهراً وغمّاً؛ فقد قـصمت الخيانة ظهره، وقتله الحزن غريبًا عن دياره وأهله وأمواله. مات وهو فى الستين من عمره قرب إسنا فى قرية «قمولة» وهى قريـة كبيرة غرب النيل تتبع مركز قوص.

رحمـة الله عليه من رجل كريم، وجعل الله الجنّة مـثواه. ولتكن سيرته قدوةً فى إكرام الـضيف والغريب وحبّ الفقراء والمساكين ونصرة المظلوم واتبّاع العدل والإنصاف.

* * *

الحكاية السابعة

عَنَزَةُ الشيخ عبد اللطيف

هذه الحكاية التي يرويها لنا الشيخ الجبرتي حكاية عجيبة . وهي تُعلِّمك يا ولدي أن لا تصدّق كلّ ما تسمع، وأن تَعرضَ كلَّ ما تسمع على عقلك، وأن لا تنخدع بمظاهر الناس؛ فكم من رجل يا ولدي يطلق لحيته ويلعب بمسبحته ويتظاهر بالصلاح والتقوى وهو ثعلب ماكر وذئب مفترس ووحش كاسر. ولصٌّ يحتال على الناس للاستيلاء على أموالهم، ودجّال يعيش على بيع الوهم والخيال للبلهاء من الناس.

ففي سنة ثلاثة وسبعين ومائة وألف ١١٧٣ من الهجرة أظهر الشيخ الدجّال عبد اللطيف كبير خدم مسجد السيدة نفيسة «عنزة» صغيرة للناس، وقال لهم: «هذه العنزة مباركة فهي عنزة السيدة نفيسة رضي الله عنها، وكلٌّ من يكرمها

تكرمه السيدة نفيسة رضى الله عنها، بأن تطلب من الله تحقيق ما يريد». واتفق مع الخدّام فى مسجد السيدة نفيسة رضى الله عنها على تلك الخديعة، ووعدهم بنصيب من الأرباح، فقاموا بالدعاية لهذه العنزة بين الناس.

فإذا قابل أحد الخدم رجلاً أو سيدة قال: «هذه العنزة لَبنها شفاء من كلّ داء. وشعرةٌ منها تحقق الولادة لمن لا تنجب أولادًا، وتحقق السعادة والوئام بين الزوجين، وتطرد الأرواح الشريرة، وتحمى من الحسد إذا وضعْتها فى حجابٍ يُعَلَّق فى ملابسها!».

- يا سلام.. يا بركات الله.. بركاتك يا سيدة نفسية!.

ويقول خادم آخر:

- عارفين يا جماعة!

- عارفين إيه؟

- هذه العنزة كانت فى بلاد الإفرنج. وقد اجتمع جماعة من أسرى المسلمين، وعزموا على ذبحها للسيدة نفيسة رضى الله عنها حتى تخلِّصهم من الأسر من يد الكفّار. ويعودوا

بسلامة الله إلى مصر وطنهم الحبيب.

- وماذا حصل بعد ذلك؟!

- حينما همّوا بذبحها وسنُّوا السكين وقاموا لإمساكها قالت لهم بصوت فصيح:

«سيأتيكم بعد قليل ملكُ الكفَّار ويطلق سراحكم، فقد جاءتنى السيدة نفيسة رضى الله عنها وقالت لى: أنتِ عنزتى وأنت مباركة. وقد جئت لملك الكفار فى المنام وطلبتُ منه إطلاقَ سراح الأسرى المصريين وإرسالى معهم فى سفينة سريعة معزَّزين مكرّمين».

- يا سبحان الله! حىّ! مدد. مدد. سبحان من أنطق الحيوان! وماذا حدث بعد؟!

- وسرعان ما جاء الملك وأخبرهم بما قالته العنزة المباركة. وأطلق سراحهم وأعطاهم الهدايا والعطايا، هم وعنزة السيدة نفيسة رضى الله عنها. وأرسلهم فى سفينة سريعة إلى شواطئ مصر وثغر الإسكندرية.

- الله أكبر. الله أكبر.

ويقول خادم ثالث:

وجاءوا بالعنزة إلى ضـريح السيدة نفيسـة رضى الله عنها. وصَلّوا شكراً لله على نجاتهم من أسر عدوّهم، والعنزة صلّت معهم بركوع وسجود.

- يا سلام. يا ألطاف الله.

- بل الأعجب من هذا أنها دخلت الضريح وسلّمت على السيدة نفيسة رضى الله عنها، وظهـرت السيدة نفيسة لها فى جـسم نورانى، ووضـعتْ يدَهـا المبـاركـة عليـهـا فى حنان ومسـحتْ شَعْرَها وضِـرْعَها. فـامتلأ بلبنٍ أحْـلَى من العسل وأطيب من المسك والعنبـر. وسمعناها تقـول لشيـخنا الشيخ عبد اللطيف:

«يا شيخ عـبد اللطيف عنزتى هذه أمانةٌ عندك، لا تُطعـمها إلا قلبَ اللوز والفستق، ولا تَسقِها سوى ماءَ الورد والسكّر المكرّر وعسل النحل».

- يا سلام سلّم.. قادر على كل شىء.

ويقول الخادم الرابع:

- لقد شاهدناها تصعد منارة المسجد وتؤذن بصوت لم نسمع أجمل منه يخلب الأسماع ويحرّك القلوب.

- الله. الله. بركاتك يا عنزة السيدة نفيسة.

* * *

وانتشرت يا ولدى تلك الأكاذيب. وسمع الناس بتلك العنزة المباركة، فجاءوا من كل مدن وقرى مصر أفواجًا أفواجًا، ومعهم قناطير اللوز والفستق وماء الورد والعسل والسكر المكرر، وجاءت النساء لها بأطواق الذهب واللؤلؤ والياقوت والمرجان والحرير. وأتوا لها بالهدايا والنذور لشفاء المرض وقضاء الحوائج وإنجاب الأطفال والمحبّة بين الزوجين. ونسوا أنَّ طلب الحوائج يكون ممّن فى يده وحده الحوائج وهو الله تعالى. وجعلوا من تلك العنزة إلهًا يُعبَد ويُتَقرَّب إليه من دون الله رب العالمين.

وطبعًا يا ولدى كلُّ هذا ذهبَ إلى الدجَّال الشيخ الكذاب عبد اللطيف وأعوانه من الخدم. وكان الشيخ الدجال يجلس عند الضريح- ضريح السيدة نفيسة العلم رضى الله عنها-

ومعـه عنزته. وافتتن الناس بهـا وتزاحموا عليـها، والسعـيد منهم من يراها أو يلمسها أو ينال قطرة من لبنها أو شعرة من شعرها. وشاع خبرها بين نساء الأمراء والأكابر وعلية القوم، فأرسلن إليها النذور والهدايا الغاليـة القيمة، وذهبن لمشاهدتها والتماس بركاتها.

وعلم بذلك أميرُ المساجد رجلُ البرِّ والإحسان الأمير الكبير عـبد الرحـمن كـتخـدا. فـأرسل إلى الشيخ عـبـد اللطيف للحضور مع عنزته ليتبرَّك بها مع حريمه. فركب الدجَّال بغلته وعلى حجـره عنزته، والطبول تقرع، والأعـلام تُرفع حوله، والحناجر تكبِّر، ودخل على تلك الصورة قصر الأمير الكبير.

وصعـد بعنزته إلى مجـلس الأمير عـبد الرحـمن كتـخدا وحوله الكبار والعلماء من رجال الأزهر الأعلام.

فوضع الأمير يده عليها وملَّس عـلى ظهرها إظهاراً لتبرُّكه بها، ثم أمر بإدخالها إلى الحريم ليتبرّكن بها.

وكان قد أوصى طبّاخه قبل حـضور الشيخ الدجّال بذبحها وطبخهـا. فلمّا أخذوها ليتبـرّك بها الحريم كما قـال الأمير،

ذبحوها، وطبخوها، وحضر الطعام وهى فيه. ووضعوها أمام الشيخ عبد اللطيف والأمير فأكلا منها حتى اكتفيا. والأمير يقول للشيخ عبد اللطيف:

«كُلْ يا شيخ عبد اللطيف من هذا الرميس السمين.. كُلْ..

فيقول الشيخ عبد اللطيف: والله إنّه لحم طيّب ومستو ونفيس.

وهو لا يعلم أنها عنزته التى خدع بها الشعب المصرى. وجعلها صنمًا يُعبد من دون الله. والأمراء والمشايخ والأعيان يتغامزون ويضحكون، فقد أخبرهم الأمير بما ينوى عمله قبل حضور الشيخ الدجّال. فلمّا فرغوا من الأكل وشربوا القهوة وأكلوا الفاكهة. قال الشيخ عبد اللطيف:

- لو أذنتَ لي بالانصراف يا مولانا الأمير ومعى عنزتى أكون لك من الشاكرين؟

- انصرف يا شيخ عبد اللطيف، انصرف.

- وأين العنزة المباركة يا مولانا الأمير؟

- فى بطنك أيهـا الشـيخ الدجّـال الكذّاب، المنافق. . ألا تخاف الله؟! أجعلتَ منها صنمًا يُعبد من دون الله أيها الفاجر من أجل عَرَض الدنيا الزائل؟! قبّحك الله ولعنك وجعل النار مثواك.

- أأنت خادمٌ فى بيت الله وأنت تُضِلُّ الناسَ عن الله؟!

- عفوك يا مولانا الأمير.

- لولا شيبتك يا دجّال لأمرت بجلدك فى ميدان الرميلة، ولكن سأجـعلك سخريةَ السـاخرين. . وكمـا ضحكتَ على الناس سأجعلهم يضحكون عليك. . أيها الحراس!

- لبّيك أيها الأمير.

- ضعـوا جلد العنزة على عـمامتـه وأركبـوه بغلته ومـعه الطبـول والأبواق والأعلام والموسـيـقى وطوفوا به القـاهرة. ونادوا عليه: «هذا جزاء كلّ دجّال يخدع الناس».

خرج الشيخ الدجّال فى هذه الصورة المخزية، وجلدُ العنزة

فوق عمـامته، والناس تسخر منـه. فلمّا عاد إلى بيته ركـبته الأمراض والأسقام، واضـمحلّ جسمه ومزقـته الآلام. حتى وافاه الموتُ فى يوم الخميس خـامس جمادى الأولى من تلك السنة ١١٧٣هـ.

* * *

فاحذر يا ولدى مكر الدجّالين وخداع المخادعين، وكُنْ من الناس على حَذَر.. ولا تُصَدِّق كلَّ ما تسمع.

* * *

الحكاية الثامنة

على بك الكبير

هذا الرجل يا ولدى -حفظك الله تعالى من كلّ سوء- رجل شديد الطموح إلى المجد ومعالى الأمور. كان يريد تحرير مصر من حكم الأتراك العثمانيين، وكذلك تحرير الشام، وإعادة الإمبراطورية المصرية العظيمة التى كانت تشمل مصر والشام والجزيرة العربية وقبرص، والتى انتهت بفتح السلطان العثمانى سليم الأول لمصر عام ١٥١٧م. ولكنّ خيانة قائده محمد بك أبو الدهب له حرمته من تحقيق هذه الأمنية بعد أن كان على وشك تحقيقها بعد فتح جيوش مصر للشام. ولو أنّه قاد جيوشه بنفسه يا ولدى الحبيب ولم يعتمد على زوج ابنته وقائد جيشه محمد بك أبو الدهب لَتمَّ له ما أراد. ولحرّر مِصْرَ من كلّ نفوذ أجنبى، ولأعاد لها مجدها وإمبراطوريتها، ولأعادها إحدى الأمم العظمى فى عصرها كما كانت من قبل. ولكن تأتى الرياح بما لا تشتهى السفن يا

ولدى. من يعتمد على غيره فى تحقيق آماله عاد بالخيبة والخسران. وحسن الظنّ بالآخرين من الغفلة والغباء؛ قال ﷺ: «سوءُ الظنّ عِصْمةٌ» أى سوء ظنك بالآخرين وتوقع الشرّ منهم وعدم كشف أسرارك لهم يعصمك من شرهم. ولنستمع يا ولدى الحبيب إلى حكاية على بك الكبير مع قائده الخائن محمد بك أبو الدهب كما حكاها لنا مؤرخنا العظيم الجبرتى.

ولكن لنعرف أوّلاً من هو على بك الكبير.

وُلد على بك الكبير ببلاد الأبازة من بلاد القوقاز إحدى ولايات الأتراك العثمانيين، وكان والده داود قسيسًا نصرانيًا، ويريد أن يشبّ ابنه قسيسًا مثله. وشاءت الأقدار غير ذلك فقد اختطف الطفل من بلده. وبِيعَ كعبدٍ مملوك، إلى أن وصل للأمير إبراهيم كتخذا جاويش. وعاش حياة غيره من المماليك الأطفال بعد شرائهم. فاعتنق الإسلام، وسمّاه سيّده عليّا. وعلّمه تعاليم الدين الإسلامى العظيم. ومبادىء القراءة والكتابة العربية والتركية. وركوب الخيل والسباحة والرياضة

والفروسية واستعمال الأسلحة النارية. ولما كان قوىَّ الجسم، شديدَ الذكاء، قوى الإرادة، شديد الحزم، لقب (بالجنّ على) ورقّاه سيّده حتى وصل إلى وظيفة [خازندار] بيته، أى الأمين على أمواله وتحصيلها والإنفاق منها على مصالح سيّده. وأحبّه سيّده وأستاذه إبراهيم بك وتفرّس فيه بلوغ أرفع الدرجات فى حكم مصر. ولمّا مات أستاذه إبراهيم بك سنة ١١٦٨هـ - ١٧٥٤م تولّى مكانه، وبدأ ظهوره. ووصل إلى منصب شيخ البلد وهو المنصب الذى يجلس صاحبه زعيمًا على مصر كلها ويكون صاحب الكلمة فى تصريف أمورها، رغم وجود الوالى التركى فى القلعة، الممثل للاحتلال العثمانى لمصر.

ولكن الوالى التركى لم يكن له مكانة شيخ البلد ولا نفوذه.

هكذا يا ولدى شاءت إرادة الله تعالى. فقد جاء على بك مصر وهو طفل ضعيف يباع لمن يشتريه عبدًا مملوكًا، فشاءت إرادة الله تعالى أن يصل بذكائه وشجاعته إلى حكم مصر.

ولم تقف نفسه عند القناعة بملك مصر؛ فقد أمر جيوشه

بالزحف على الشام (سوريا ولبنان والأردن وفلسطين الآن) لتحريرها من الاحتلال التركى العثمانى وإعادتها إلى مصر، كما كانت فى عهود سلاطين المماليك العظام قبل عام ١٥١٧م. عام نهاية السلطان الغورى آخر السلاطين المماليك على يد السلطان التركى العثمانى سليم الأول.

وقف على بك الكبير يستعرض جيوشه مع قائده وزوج ابنته محمد بك أبو الدهب وقوّاده أيوب بك ورضوان بك وغيرهم.

عساكر كأوراق الشجر وحبّات الرمال عدداً. مصريون ومغاربة وأتراك وهنود ومماليك ويمنيّون. يرتدون أجمل الحلل العسكرية والسيوف والحراب والسّهام والمدافع والبنادق والذخائر والمسدسات، والمدافع المحمولة على عجل، والمدافع ذات الزنبلك المحمولة على ظهور الجمال. ومع الجيش الطبول والزمور والكاسات والأبواق وموسيقى القِرَب العسكرية والخيام والمطابخ والمؤن.

قال على بك الكبير فى زهو وإعجاب:

- لقد أعددت لك جيوشًا تستطيع بها غزو عاصمة الخلافة العثمانية نفسها قائدنا وولدنا محمد بك أبو الدهب، وليس فقط فتح بلاد الشام والحجاز والجزيرة العربية.

- مولانا الأمير شيخ البلد أطال الله بقاءك لمصر العظيمة. سوف تأتيك أنباء انتصاراتنا متتابعة بمشيئة الله تعالى؛ فالجيش العظيم لا يحقق الانتصار بغير القادة العظام.

- ها. ها. برافو. برافو. ولد أمير محمد بك أبو الدهب. فقد أردتَ تذكيرنا بأنّك القائد العظيم الذى لم يخسر معركة فى داخل مصر، وآخرها الانتصار على أمير الصعيد شيخ العرب همام وأتباعه من أمراء المماليك.

- لم أقصد هذا يا مولانا الأمير.

- ها. ها. ولد عفريت قائد جيوشنا. ولد عفريت. وهل زوّجتك ابنتى الجميلة وجعلتك قائد الجيوش والرجل الثانى فى مصر بعدى إلاّ من أجل عبقريتك الحربية وشجاعتك ومكرك وحسن تدبيرك؟!

- شكرًا. شكرًا. مولانا الأمير شيخ البلد.

- رضوان بك. أيوب بك. كونا عونًا لقائدنا محمد بك أبو الدهب. وحققوا لمصر المجد والانتصار.

- بمشيئة الله تعالى يا مولانا شيخ البلد.

- وهل شحنتم السفن بالذخائر ومعدّات الجيش ومؤنه؟

- نعم يا مولانا أمير مصر. السفن تحركت قبلنا عن طريق ميناء دمياط إلى البحر الأبيض المتوسط إلى يافا.

- رائع.. جميل.. سيروا إذن على بركة الله ومعونته.

وتحركت جيوش مصر إلى البلاد الشامية لتحريرها من الأتراك العثمانيين. وحققت الانتصارات المتتابعة حتى وصلت إلى حلب فى سوريا من بلاد الشام. ووصلت البشائر إلى القاهرة ومصر. فأمر على بك بنصب الزينات فى القاهرة ومصر القديمة وبولاق ثلاثة أيام بلياليها. ورقص الشعب فى الشوارع. وأضيئت الأنوار فى الليل فصار كالنّهار، وعُملت الولائم الحافلة بما لذّ وطاب لإطعام الناس.

وضُربت المدافع والصواريخ النارية. ودقّت الطبول والموسيقى العسكرية. وأقيمت مهرجانات الغناء وحفلات

الشعـراء الشعـبيين على الـربابة يقصّـون وقائع الانتـصارات العظيمة لجـيوش مصر على الأتراك العثـمانيين وأنصارهم فى ولايات الشام.

واختلطت هذه الاحتفالات باحتفال مولد النبى ﷺ. حيث كان الشهر هو شهر ربيع أول عام ١١٨٤هـ.

وأرسل على بك الكبـير لقـائد جيـوشه مـحمـد بك أبو الدهب يأمره بتـعيين أمراء الجيـش حكامًا على الولايات التى حرّرتها جـيوش مصر. وأن يستـمر فى زحفه حتى عـاصمة الخلافة العثمانية إسلامبول. وأذهلت هذه الانتصارات الأتراك العثمـانيين، وخشى الخليفة العـثمانى من هزيمة جيـوشه أمام جيوش مصر، وضياع ملكه وسلطانه.

وأرسل لمحمد بك أبو الدهب رسولاً فى السرّ يعرض عليه رجوعه بجـيوش مصر على أن يكون له حكم مـصر ورضاء سلطان الأتراك العثمانيين.

وقال له الرسول:

- سيّـدك على بك لا يؤمَن له؛ فـهو رجل لا عـهد له،

ومن أجل تحقيق ما يريد يضحىّ بأىّ صـديق له. فهل تعتقد أنّك لو حققت له ما يريد من فـتح البلاد وإعادة الإمبراطورية المصرية سوف يتركك تعيش مـعه فى سلام؟! هل نسيت نفيه لصالح بك بعـد تعاهدهما على الإخلاص بعـد وساطة شيخ العرب همّام بينهـما؟! وهل نسيت غدره بأمير الصـعيد شيخ العرب همّـام وهجومه عليـه بقيادتك حـتى مات الرجل من الهمّ والغمّ والحزن؛ لأنّه كـان يخشى من نفوذ شـيخ العرب همام صديق سلطاننا.

فهل تراه يتـركك بعد أن لهج الشعب بذكرك لانتـصاراتك علينا فى الشام؟! . . إنّه يريد أن يبقـيك مع قادة الجيوش فى الغربـة بعيداً عن أهلـك وأولادك خوفًا من تزايد نـفوذك فى مصـر وحمايةٌ لـسلطانه ولأنّه لا يريد لأحد معـه سلطانًا ولا نفوذاً.

- كلامك مقنع يا سيدى. وأنا أعرفه تمام المعرفة؛ يضحىّ بأعزّ عـزيز عنده من أجل تحقـيق المجد والسلطـان. وهذا ما كنت أفكّر فيـه. أبْلغْ السلطانَ خليفـة المسلمين بتعاونى مـعه

وإعادة مصر إلى نفوذه ولايةً من ولايات الخلافة العثمانية.

- عظيم. عظـيم. رجل عـاقل وقـائد عـظيم. ولك من سلطاننا وخليفـة المسلمين ما تريد. فيـجب أن يظلّ المسلمون دائمًا فى وحـدة واحدة وإلاّ ضاعوا بين أنيـاب الأعداء الذين يستعدّون للقضاء عليهم، ومـا أكثرهم. فجزاك الله خيرًا عن الإسلام والمسلمين.

جمع محـمد بك أبو الدهب قوّاد الجيـوش والأمراء وقال لهم:

أرسَلَ لى مولانا على بك الكبير يطالبنا بمواصلة الزحف دون توقّف، وفـتح الممـالك والإمـارات. وسـوف يتـابعنا بالإمدادات والمعدّات والجنود.. فما رأيكم؟

- الرأى لك؛ فـأنت أميـرنا وقائدنا وكـبيـرنا، ونحن لك أطوع من يمينك؛ فَمُرْنا بما تشاء وتريد.

- هل أنتم معى لو خالفتُ أوامر أستاذى على بك الكبير؟

- نعم ولكن أظْهِر ما فى نَفْسِكَ..

- لا أظهر لكم مـا يدور فى نفسى حـتى نتعـاهد جميـعًا

ونقسم على كتاب الله الكريم بأن نكون معًا على الخير والشرّ.

- هيّا نتعاهد معًا على كتاب الله الكريم، وعلى السيف.

- والآن بعد أن تعاهدنا على الكتاب والسيف. فأرى أن نعود إلى مصر إلى وطننا الحبيب وأولادنا ونسائنا. فأستاذنا يريد أن نقطع أعمارنا ونُفنى أيّامنا فى الغربة والحروب والأسفار والبعد عن الوطن. وكلّما فتحنا ولايةً طلب منّا فتح غيرها. وإذا كان يريد مواصلة الفتح والحرب فليرسل غيرنا. ونحن يكفينا ما فتحنا من بلاد ونبقى مع عيالنا وفى بيوتنا.

- ونحن جميعًا على رأيك موافقون وإلى وطننا وأولادنا مشتاقون.

* * *

حينما علم على بك برجوع الجيوش والقوّاد والأمراء وتمرّدهم على أوامره بمواصلة الفتوح، نقمَ على قائده محمد بك أبو الذهب وتيقّن من خيانته له، وعزم على الخلاص

منه. فاتفق مع على بك الطنطاوى وآخرين على حصار منزل محمد بك أبى الذهب وقتله. ولكنّ أبا الذهب فطن للمؤامرة واستطاع الخروجَ سالمًا مع أتباعه المخلصين وفرَّ إلى الصعيد. وجمع القوات ومكث فى جرجا عند أميرها أيوب بك. أحد القادة الذين صحبوا محمد بك أبا الذهب فى الحملة العسكرية على الشام، والذى عيّنه على بك الكبير حاكمًا على ولاية جرجا بالصعيد ليكون له عونًا على محمد بك أبى الذهب حينما يأتى وقت انتقامه منه.

وحينما دخل محمد بك أبو الذهب ولاية جرجا. قابله أيوب بك بالأحضان. وأظهر له المؤاخاة والثبات على العهد. ولكن محمد بك أبا الذهب كان شديد الذكاء والحذر. فوضع الجواسيس على الطرق لترقب الأخبار، فسقط فى يده رسول من على بك الكبير لأيوب بك يحمل رسالة تحرّض أيوب على قتل محمد بك أبى الذهب ليتولّى مكانه. فلمّا وقف الرسول أمام محمد بك قال له:

لا تخف أيها الرسول.. كلُّ ما أريده منك هو أن تذهب بالرسالة وتعود إلىَّ بردّ أيوب بك على رسالة على بك.

ولك منىّ الإكرام الزائد.

- سمعًا وطاعة لك يا مولاى الأمير.

ولمّا عـاد الرسول بالرسـالة وفيـها أنّه سـيبـذل جهـده فى الخلاص من محمد بك أبو الدهب. هنا تيقّن محمد بك من خيـانة أيوب بك ونقضه للعـهد السابق بينهـما، فاستـعد مع أتباعه للهجوم على أيوب بك، وأرسل إليـه، فلمّا حضر إليه قبض أتباع محمد بك على أتباع أيوب بك، ودخل أيوب بك وحيداً إلى محمد بك أبو الدهب الذى بادره قائلاً:

هل نحن مـا زلنا على أخوّتنا وعـهدنا وصداقـتنا يا أيوب بك؟

- نعم نعم وزيادة.

- وما جزاءُ مَنْ نكث وخان اليمين ونقض العهد؟

- يُقطع لسـانه الذى حـلف به ويده التى وضـعـهـا على المصحف.

- إذن فـقـد حكمتَ على نفسـك يا خـائن. وهذا دليل

خيانتك بخطّ يدك.

وأظهر له رسالة الخيانة. ثمّ أمر أتباعه بقطع يده ولسانه وإرساله لأستاذه على بك على تلك الحالة. ولكنهم حينما وضعوه فى السفينة وقطعوا يده وأرادوا قطع لسانه ألقى بنفسه فى النيل فمات غرقًا. ثم قاد محمد بك أبو الدهب قواته لمحاربة سيّده على بك الكبير وكان النصر له، وجُرح على بك،وحمله محمد بك إلى منزله فى احترام زائد، ولكنّه مات بعد أيّام. قيل مات مسمومًا سمّه محمد بك، وقيل مات من القهر والحزن. والله أعلم بالحقيقة.

هذا الرجل يا ولدى كان كما رأيت شديد القوة عظيم الهمّة. بعيد الآمال. استقلّ بمصر عن سلطان العثمانيين. وقضى على المفسدين من الأعراب فى مصر. وسيطر على الحجاز والشام . ونزعهما من سلطان الأتراك العثمانيين وأعادهما لحكم مصر كما كانا من قبل. وعمرّ قلاع الإسكندرية ودمياط. وملأ القلاع بعساكره. وكان لا يعرف الهزل واللهو والمزاح ولا يحبّ سوى الجدّ ومعالى الأمور. ولا يجالس إلاّ أهل الوقار والعلم والمسنّين أصحاب الخبرة

بالحياة. وكان يقدّر من علمـاء الأزهر فى زمانه المشايخ حسن الجبرتى والد مؤرخنا عبد الرحـمن الجبرتى وكاتبه المعلّم رزق القبطى الذى بلغ فى أيامه من العظمة ما لم يبلغه قبطى وكان كاتب رسـائله العـربية الشيـخ محمـد الهلباوى الدمـنهورى وكاتب رسائله باللغة التركية مصطفى الأشقر أفندى.

واسـتتبّ الأمن فى عـهـده. وقضى علـى المفسـدين فى الأرض والمرتشين والظالمين. فعاقبهم بالضرب الشديد والإهانة والقتل والـنفى إلى البلاد البـعيدة. ولم يُراع فـى ذلك أحدًا لمكانته، بل الكلّ أمام القانون سواء.

وقضى على قطاع الطرق واللصوص من العـرب وغيرهم. وألزم رجـال الأمن والحكام والـكبـراء بحـفـظ الأمن فى نواحـيهم، وعـاقب الكبار بجناية الصـغار، فـأمنت الطرق. وانقمع أولاد الفساد والمجرمون واللصوص.

فكان الشخص يسـافر بمفرده ليلاً أو نهـارًا راكبًا أو ماشـيًا ومعـه الأموال ويبـيت فى الحقل أو الصـحراء أو القـرى آمنًا مطمئنًا لا يتعرض له أحد بمكروه أبدًا. وكان رحمه الله عظيم الهيـبة مات بعض الناس خـوفًا من هيبـته؛ إذ كان كـالأسد

الكاسر إذا غـضب. وكان الكثـيرون تأخذهم الرعـدة بمجرّد الوقوف بين يديه. فيقول له: هوّن عليك ويلاطفه حتى ترجع نفسه إليه ثم يعرض عليه حاجته.

وهو صاحب العمائر العظيمة فى مصـر. منها مسجد وقبة السيد أحمد البدوى رضى الله عنه، وسوق طنطا، وجدّد قبة الإمام الشـافعى رضى الله عنه. وعمل سـوقًا عظيمًا ببولاق على شاطئ النيل. وداره العظيمـة المطلة على بِرْكة الأزبكية، ومـات رحمـة الله عليه فى منتـصف شهـر صفـر سنة أربع وثمانين ومـائة وألف هجرية ١١٨٤هـ. فرحمـة الله عليه من رجل طموح محبّ لمجد مصـر وللعدل فى أرجائها، وللأمن فى ربوعـها، وقـاضيًـا على الظالمين والمفـسدين واللصـوص وقطّاع الطرق والمرتشين.

فكن يا ولدى الحبيب محبًا لـوطنك الحبيب مصر ولأمتك العربيـة والإسلامية. وليكن طمـوحك باتساع الأرض والماء، ولتعـمل دائمًا على التفوق على الآخـرين. واكتساب مـعالى الأمور وجمع شمل الأمة الإسلامية وإعادة وحدتها تحت أنوار الحكم الإسلامى الرحيم والخلافة الإسلامية الرشيدة.

ومع تعظيم هيبة على بك الكبيــر يا ولدى وعتوّه وشدته، كان يقدّر العلمــاء الشجعان ويهابهم ويــعمل على إرضائهم؛ فهذا هو الشيخ الأزهرى العالم الكبـير الشيخ على الصعيدى كان إذا جــاء لزيارة على بك وهو يشرب الدّخان. كــان يأمر برفع الشيــشة من بين يديه قــبل دخول العالم الشــجاع؛ لأنّه يعرف عنــه كراهيتــه للدّخان وتكســيره لآلتــه إذا وجدها فى مجلســه. وكان إذا دخل الشيخ على الصــعيدى على الأمــير على بك الكبير، قام الأمير بتــقبيل يد الشيخ وأجلسه بجواره فى إكرام زائد واحترام بالغ.

ذات يومٍ دخل عليــه كعادته، فــقام بإكــرامه وتقــبيل يده، وأجلسه بجواره. وكان الأميــر يفكّر فى بعض الأمور الهامّة، فظنّ الشيخ أنّ الأميــر غاضب عليه أو معــرض عنه. فأخذته كرامة العلم وقالِ فى غضب مخاطبًا الأمير:

«يا مين. يا مين. يا من غــضبك ورضاك على حــدّ سواء عندى، بل غَـضَبُـكَ خيـرٌ مِنْ رضــاك». وكرّر ذلك القــول الغاضب له، وقــام مغاضــبًا للأمير، والأمــير يحاول تهــدئته والاعتذار له. ويقول له:

- أنا لم أغضب منك، حاشا لله، ولم أعرض عنك، وإنّما أطلب معذرتك وعفوك يا مولانا الشيخ؛ فقد كنت مهمومًا، أفكّر فى بعض الأمور الخاصة بالدولة.

فلم يقبل الشيخ الاعتذار وخرج غاضبًا، وحينما علم على بك بالقضية التى جاء من أجلها أمر بقضائها له فورًا.

وكان الشيخ يذهب للأمير ومعه قائمة بالأمور التى عليه أن يشفع فى قضائها للناس؛ لأنّه يعلم أنّ قضاء حوائج النّاس والشفاعة لهم عند الحكّام من أعظم أعمال البرّ فى الإسلام، وثوابُها عند الله عظيم.

واستمرّ الشيخ مقاطعًا مجلس الأمير مدّة من الزمان، حتى كانت ليلة من ليالى شهر رمضان المعظّم، وكان الشيخ على قد ركب بغلته وركب أستاذه الشيخ حسن الجبرتى بغلته وذهبا معًا لزيارة بعض الأمراء، فمرّا ببيت على بك الكبير، فقال الشيخ حسن:

- أدخل يا شيخ على معى نسلّم على أمير مصر على بك الكبير.

- يا شيخنا أنا لا أريد الدخول؛ لأننى على قطيعة معه.

- يا شيخ عليّ هذا شهر رمضان المبارك.. ولا يجوز خصامك لأخيك أكثر من ثلاثة أيام. وخيرُ المتخاصمين الذى يبدأ بالصلح، والرجلُ لم يغضب عليك ولا منك، واعتذر لك على انشغاله عنك بأفكاره، وقضَى حوائجَك. ويقبل شفاعتك، ويحترمك ويقبّل يديك. وهو ولىّ أمرنا، وأمرَنا الإسلامُ أن نُنْزِل الناسَ منازلَهم؛ فلا يتحجّر عقلك ويقسو قلبك. وتعاند عناد الصعايدة، وإلاّ أقسمت أن أكسر دماغك بهذه العصا.

- طاعة لك يا أستاذى الكريم.. فلا أستطيع أن أخالف لك أمرًا.

- بارك الله فيك.

وفرح على بك الكبير بحضور الشيخين غاية الفرح. وسُرَّ فى تلك الليلة غاية السرور.

فرحم الله الأمير لتقديره العالم والعلم. ورحم الله العالم لاعتزازه بكرامته وعزّة نفسه وشجاعته فى الحق.

* * *

الحكاية التاسعة

الشيخ حسن الجبرتى عالم عصره

هذه يا ولدى حكاية الجبرتى عن سيرة والده العالم العظيم الشيخ حسن الجبرتى، وهذا الشيخ الأزهرى يا ولدى - حفظك الله تعالى من كل مكروه- كان نادرة زمانه فى علوم الرياضيات والفلك والهندسة والمساحة والطبيعة إلى جانب علوم الدين واللغة العربية والتاريخ واللغات والجغرافيا، هذا العلم يزينه حسنُ الأخلاق والكرمُ والإحسان إلى طلاب العلم الفقراء واستضافتهم وتوفير ما يلزمهم من المسكن والملبس.

كان آباء الجبرتى علماء فى الأزهر الشريف، وكانوا مشايخ رواق الأحباش بالأزهر الشريف؛ لأن بلاد جبرت التى يُنسب إليها مؤرخنا العظيم الجبرتى ووالده الكريم هى جزء من بلاد الحبشة [أثيوبيا الآن]، وينتهى نسبه إلى عقيل بن أبى طالب، ابن عم النبى ﷺ، فهم من الأسرة الهاشمية الشريفة، وقد

جاء الشيخ عبد الرحمن الجبرتى الجد الخامس لمؤرخنا العظيم إلى مصـر وجاور بالأزهر الشـريف فى أوائل القرن العـاشر الهجـرى، وتولى مشيـخة رواق الأحباش وتزوج من مـصر وأنجب، وتعلَّم على مشـايخ الأزهر العظام فى عهـده، فلما مات خلفه ولَدُه الشيخ شمس الدين محمد، وكان صالحاً مثل أبيـه، عالماً مـثله، تولى مـشيـخة رواق الأحـباش كـوالده، وتزوج، ولم يكن ينام فى منزله ليلةً أو ليلتين فى الأسـبوع، وبقية الأسـبوع ينام فى الرواق بالأزهر الشريف [والرواق هو المكان المخـصص فى الأزهر الشـريف لطلاب العـلم للسكن فيه].

وكـان يبيـت بالرواق ليطالع العلم على مـصـابيح الأزهر الشريف أول اللـيل، وليقوم بالعـبادة لله تعالـى آخر الليل، حيث الهـدوء الشامل والصـفاء الكامل، وفى ليلةٍ مـن ليالى الشتاء عصفتْ الرياح فأطفـأت السراج، فذهب الشيخ شمس الدين الجـبرتى إلى نـقيب الأزهر الشـريف يوقظه من نومـه ليضئ له السراج، وكان النوم قد تـغلَّب عليه، فقام من نومه وهو فى شدة الضيق وأخـذ المصباح وذهب ليضيئـه، وحينما

عاد بالسـراج وجد منظراً عظـيماً، وكـرامةً من كـرامات الله سبحـانه وتعالى لعباده الصالحـين وأوليائه المقرَّبين، رأى نوراً يضئ الرواق من غير سـراج، فستر المصباح بعـباءته واقترب بحـذر ليرى مِنْ أى مـصدر يشـرق هذا النور الرائع الشـديد الصفـاء، وحينمـا شاهد مـصدرَ النور أصابه الـذهول؛ لقد شاهد الشيخ شمسَ الدين الجبرتى يطالع فى كتابه وهو يمسكه بيده الـيسرى، وسـبابة يده اليـمنى يرفعـها وهى تضـئ مثل المصبـاح الكهربائى الآن، وقف النقيب مـذهولا ثم أفاق من ذهوله، وعـرف مكانة هذا الشيـخ العالم عند ربه سـبحـانه وتعالى، وحـينما دخل بالمصبـاح ذهب النور الإلهى، وأكبَّ النقيب على يدى الشيخ يقبلها ويطلب منه الدعاء، وأن يكون عنه راضيا.

- أشاهدت النور يا نقيب الأزهر؟

- نعم يا مولانا الشيخ شمس الدين، فـقد تجسست عليك لأرى تلك الكرامة التى أكرمك الله تعالى بها، وأنا نادم على تجسـسى وعلى ضيقى منك لإيقـاظى من النوم فى هذه الليلة الكثيرة البرد لأشعل لك السراج.

- لقد أخطأتَ يا أخى فى التجسس؛ فقد نهى الله سبحانه وتعالى عن تجسس المسلم على أخيه المسلم، ومع هذا فسوف أعفو عنك بشرط واحد.

- ما هو يا مولانا الشيخ أكرمك الله تعالى ونفع بك المسلمين؟

- أن تكتم ما شاهدت ولا تحدِّث به أحداً طوال حياتى.

- لك ذلك يا مولانا الشيخ، وهذا عهدٌ مع الله سبحانه وتعالى.

ولم يَعِشْ الشيخ شمس الدين بعد ظهور تلك الكرامة كثيراً يا ولدى؛ فقد مات بعدها بقليل - رحمة الله تعالى عليه - وخلف بعده ولده الشيخ على، فكان كأجداده وآبائه فى العلم والصلاح والتقوى وحسن الأخلاق، وعمت شهرته الآفاق، وكثر ماله فصار من كبار أغنياء العلماء، وتزوج الشيخ على الجبرتى بالسيدة زينب بنت الإمام العلاَّمة القاضى عبد الرحمن الجوينى، وتولى أيضاً مشيخة الرواق، وحينما مات وذهب للقاء ربه - رحمة الله تعالى عليه - ترك ولدين

همـا الشيخ حسـن والشيخ عـبد الرحـمن، ومات فى عـام ١٠٨٦ هـ فى حياة أخيه الشـيخ حسن، وكانت للسيدة زينب أملاكا عديدة وهبتها لابنَىْ زوجـها الشيخ حسن والشيخ عبد الرحمن.

ومات الشـيخ حسن وترك ابنه إبراهيمَ رضيـعاً، فكان فى كفـالة ورعاية والدته الحاجة مـريم بنت الشيخ العالم العـمدة الضابط لمسائل العلم محمد بن عمر الأنصارى.

ونشأ الشيـخ إبراهيم الجبرتى فى صلاح وتقـوى، وحينما بلغ مبلغ الرجال تزوج بالسيدة ستيتة بنت عبد الوهاب أفندى الدلجى فى سنة ١١٠٨هـ ودخل بها فى تلك السنـة فحملت بالشيخ حسن والد مؤرخنا عبد الرحمن الجبرتى، وولدته فى عام ١١١٠هـ. ومات والده وعمره شهر واحد.

مات والده فى ربيع العـمر، حيث كان عمـره ست عشرة سنة، فربته والدته السيدة ستيتة بكفالة جدته لأبيه السيدة مريم ووصاية الإمام العـالم الشيخ محمد النشـرتى، وحفظ القرآنَ الكريم وعمرُه عشر سنوات، ونشأ محبًا للعلم وللعلماء، فحفظ كثيراً من النصوص العـلمية، وحدثت له حادثة غريبة

وهو فى سن الثالثة عشرة، وذلك أنه كان يسير مع خادمه يومًا بطريق الأزهر الشريف لتلقّى دروس العلم فى الأزهر، فشاهد شيخاً مقبلاً يسطع النور من وجهه ولحيته البيضاء، وعليه علامات الجلال والوقار، والناس يلتفون حوله ويزدحمون على تقبيل يده والتبرك به، فقال لخادمه:

- من هذا العالم الذى يقبل الناس يده فى حب واحترام؟

- إنه الشيخ حسن ابن العالم العظيم الشيخ الشرنبلالى.

- لقد وقع حبه فى قلبى وأريد تقبيل يده ونيل بركاته وصالح دعواته!

- هيا يا سيدى على بركة الله تعالى.

وحينما تقدم إليه وقبل يديه، وطلب منه صالح الدعاء، نظر إليه الشيخ الجليل طويلاً، وقبض على يده.. وقال:

- من هذا الغلام؟ ومن أبوه؟

- هذا حسن الجبرتى ابن الشيخ إبراهيم الجبرتى ابن الشيخ

حسن الجبرتى. فتبسم الشيخ الجليل وقال:

- لقد عرفته بالشبه، رحم الله والدَه وجدَّه العالم العظيم.

- أتعرف جدى يا مولانا الشيخ؟

- نعم يا ولدى، أنا قـرأت العلم على جـدك، وهو قـرأ على والدى، وأريدك أن تقرأ علىَّ العلوم،ليـتصِّل بيننا نسبُ العلم؛ فالعلم رَحِمٌ وقرابةٌ بين أهله.

- هذا يُسْعِدُنى يا مولانا الشيخ غاية السعادة.

- حَسَنًا. إذن فـأنا فى انتظارك كل يوم للحـضور عندى واستماع العلم منى.

- على بركة الله تعالى وبمشيئته.

- نفع الله بك يا ولدى المسلمين وفتح عليك كنوز العلوم.

وتخرج الشيخ حسن الجبـرتى على أستاذه الشيخ حسن بن حسن الشرنبـلالى الحنفى فى ثالث ربيع الأول عام ١١٢٣هـ وأعطاه الإجازة العـلمية وهى كـالشهادة العـالية فى عـصرنا الحاضر.

وقد درس على أستاذه كتـاب متن (نور الإيضاح) فى الفقه الحنفى تأليف والد أستاذه الشيخ حسن بن عمار الشرنبلالى.

وقال له عقب منحه الإجازة العلمية فى الفقه الحنفى:

«وأوصِى الولدَ الأعـزّ بالتـقـوى ومـراقـبـة الله فى السـر والنَّجْوَى، واللهُ تعالى يوفِّقُـه وينفع به وبعلومه ويهدينا وإياه لِما كان عليه السلف الصالح فى أساس الدين وفروعه».

وتوفى الشـيخ الشرنـبلالى فى آخـر عام ١١٢٣هـ، وقـد جاوز التـسعين من عمـره المبارك، فحـزن عليه تلميـذه غاية الحزن، وتابـع تحصيل العـلوم المختلفـة حتى صار بـحراً فى العلوم لا يُدْرَك قرارُه، وكان فى بيته القريب من الأزهر معملاً للكيـمياء ومكتـبةً عظيـمة، وجـاءه التلامـيذ من شتـى بقاع العالم، واخترع طواحين الهواء واسـتنباط المياه وجرِّ الأثقال، فنقلها طلاب أوربا إلى بلادهم مع كشوفه واختراعاته الأخرى فى الهندسة، وفـاقَ أهلَ عصره فى العلوم المخـتلفة، ودرَّس العلوم فى الأزهر الشريف وفى مدرسة السنانية ببولاق.

وكان لجدته أمِّ أبيه أكبرَ الفـضل فى مساعدته على تحصيل

العلوم، وكانت سيدة ذات ثراء واسع وأملاك كثيرة وعقارات منتشـرة فى أماكن مـختلفـة، وقد أوقـفت عليه الكثـير من أملاكها مثل وكالة الصنادقـية والحوانيت بجوارها، وبالغورية ومـرجوش، ومنزلا بجـوار المدرسـة الأقبـغاوية فى مـدخل الأزهر الشريف.

فكان بيته مجاوراً للأزهر الشريف، وقد جعلت هذه الجدة الصالحة للفقـراء والمحتاجين نصيباً من أملاكهـا، فقد أوقفت أموالاً تُصرف على تعليم أيتـام المسلمين القرآن الكريم والعلم فى كتّـاب مواجه لوكـالة الصنادقية، وعلى قـراّء يقرأون ربع القرآن كل يوم، وخـتمات للقرآن فى ليالـى رمضان والمواسم الإسلامـية، وقـصعـتَىْ ثريد فى كل ليلة من ليـالى رمـضان المعظم، ولحم ثلاث جواميس فى عـيد الأضحى المبارك توزّع على الأيتام والفقراء وقرّاء القرآن الكريم والعلماء.

وكان الشيخ حسن الجبرتى مع هذا الثراء الذى لجدته يتاجر مع طلب العلم حتى كثرت أمواله، وتزوجت جدته بعد وفاة جده بالأمـير المملوكى على أغا الطـورى، وكانت له ابنة من زوجة سابقة تزوجها الشيـخ حسن الجبرتى، وكان هذا الأمير

يحكم قلاع الطور فى سيناء والسويس والمويلح، وكانت قلاعًا عامرة بالجنود والأموال والأسلحة والأعلاف والطعام.

ولما مات الأمير على أغا الطوري عام سبع وثلاثين ومائة وألف هجرية، تولى زوج ابنته الشيخ الجبرتى مناصبه الإدارية مع كونه من علماء الأزهر الكبار، وقد ترك الشيخ حسن الجبرتى حُكْمَ هذه القلاع بعد أن بعث خادمًا له اسمه سليمان الحصافى جربجيا ليكون حاكمًا على قلعة المويلح، فقتل هناك، فغضب الشيخ حسن الجبرتى وترك حكم جميع القلاع طائعًا مختاراً، وتفرغ للعلم والبحث والتجارب العلمية فى مكتبته ومعمله، وحينما ماتت زوجته بنت الأمير على فى حياة أبيها تزوج الشيخ حسن بزوجة صالحة هى بنت رمضان جلبى الخشاب، وهم بيت مجد وثروة على النيل ببولاق، ولهم عقارات وأوقاف ووكالة (سوق) الكتان، وحوانيت أمام جامع الزرد كاش، وكان والدها رجلاً حسن الأخلاق، رقيق الحاشية، ومات والد زوجة الشيخ حسن عام ١١٣٩هـ، وبقيت ابنته فى عصمة الشيخ حسن حتى ماتت فى المحرم عام ١١٨٢ هـ، وعمرها ستون عاماً، وكانت زوجةً من

الصالحات الخيِّرات المصونات، حجَّتْ مع زوجها فى عام ١١٥١هـ. وكانت شديدة الحب لزوجها والطاعة له والإحسان إليه والعطف عليه والمودة له والرحمة به.

وقامت بما تعجز كل النساء عن الإتيان بمثله؛ فقد كانت تشترى لزوجها الجوارى الحسناوات الرائعات الجمال من مالها، ثم تُلبسهن أفخر الملابس وتزينهن بأثمن الجواهر ثم تهبهن له لإدخال السرور على نفسه تبتغى بذلك ثواب الله تعالى وحسن رضاه عنها، وكان يتزوج عليها الكثيرات من الحرائر ويشترى الجوارى ولا يحصل لها غَيْرَة ولا تغضب منه ولا تطلب الطلاق، وإنما ترى أن ما يسعده يسعدها، وما يُدخل السرور إلى قلبه هو ما يدخل السرور إلى قلبها، لقد كانت زوجة عظيمة صالحة يا ولدى ليس لها بين النساء مثيلا أو شبيها، وهذه الحكاية تدل على عظمة قلبها وسمو عواطفها وإخلاصها فى محبتها، فحينما حج زوجُها فى عام ١١٥٦هـ قابل صديقه الشيخ عمر الحلبى بمكة فتعانقا وتحدَّثا فى أحوالهما، وضحك الشيخ عمر وقال لصديقه الشيخ حسن الجبرتى:

- أريد أن تشترى لى جارية رائعة الجمال من مصر يا شيخ حسن.

- ألا توجد عندكم فى حلب جوارى جميلات يا شيخ عمر؟

- يوجد، ولكن جوارى مصر أجمل وأكثر عذوبة ونصاعة روح وجاذبية وخفة دم، وأنت بالجمال خبير يا شيخ حسن.

- ها.. ها.. ما هى أوصافها يا صديقى العزيز؟

- تكون بِكراً دون البلوغ، بيضاء الجسم، خضراء العينين، ذهبية الشعر، رشيقة القوام، فارعة الطول، ذكية العقل، تحسن الكتابة والقراءة، وتحب العلم.

- سأبحث لك عنها إن شاء الله تعالى.

- جزاكَ اللهُ خيراً يا صديقى العزيز.

وحينما عاد الشيخ حسن من الحجاز، طلب تجار الجوارى، وطلب منهم إحضار الجارية المطلوبة، فلما عثر عليها أحضرها إلى زوجته وقال:

- هذه الفتاة أمانة عندك حتى أرسلها لصديقى الشيخ عمر الحلبى فى القافلة المسافرة إلى حلب إن شاء الله تعالى.

-سأجعلها فى عينى وأعاملها كابنتى تماما يا شيخ حسن.

ومكثت الفتاة مع زوجة الشيخ حسن فترة من الزمان، وتعلقت بها وأحبتها، وكذلك الفتاة وجدت فيها أما صالحة عطوف شفوق، فتعلقت بها هى الأخرى غاية التعلق، وحينما جاء ميعاد سفرها وجاء الشيخ حسن لأخذها قالت له زوجته:

- إنى أحببت هذه الفتاة حبا دخل أعماقَ قلبى ولا أستطيع فراقها وليس لى أولاد، وقد جعلتها مثل ابنتى، وبكت بالدموع الساخنة.. وقالت الجارية أيضا:

- وأنا يا سيدى لا أستطيع فراق سيدتى ولو ذهبت من عندها لذهبت روحى إلى خالقها.. (وبكت بأحر بكاء).

وقال الشيخ حسن:

- وماذا نعمل مع الشيخ عمر؟

- أعطيك ثمنها من مالى وتشترى له جارية غيرها.

- على بركة الله تعالى وبمشيئته، فلا أستطيع رفض طلبك يا زوجتى الصالحة الحبيبة.

- وأنا أشهد الله سبحانه وتعالى بأننى قد أعتقتها لوجه الله تعالى فهى حـرة منذ الآن، وسوف أعدّ لها بيتا مـجهزا بكل الأثاث والرياش قريبًا منى، وأقوم بتجهيزها ومواصلة تعليمها فنون البيت، وتـقوم أنت بتعليـمها العـلوم والأدب والتاريخ والشعر.

- نِعْمَ الرأى الذى وفَّقك الله تعالى إليه.

- وبعد بضع سنوات حينما نضـجت الفتاة وصارت فريدة عصرها فى الحـسن والجمال والعلم والأدب والثقافـة وشئون البيت قالت زوجة الشيخ حسن له:

- اسمع ما أقوله يا زوجى العزيز.

- خيرا يا زوجتى الغالية؟

- أريد أن أزوِّجك نورَ الصباح.

- أنا؟!

- نعم، فلن أزوِّجها لأفضل منـك، ولن أطمئن عليها مع أحد سواك، ثم أنك تحب الزواج من النساء الجميلات، ونور الصباح ملكة جمال مصر، وفريدة عصرها فى الحسن.

- مادامت هذه رغبتكِ فعلى بركة الله تعالى.

وفى عام ١١٦٥هـ عـقد عليها وتزوج منهـا، وأنجب منها أولاداً ماتوا فى طفـولتهم، ولم تكن زوجتـه تطيق فراق نور الصباح ساعة واحدة مع أنهـا صارت ضرَّتها وزوجة زوجها، فلما جاء عـام ١١٨٢هـ مرضت نور الصباح وقـامت زوجته خديجة بتمريضها والقيـام عليها، فلما أفاقت نور الصباح فى صباح يوم وفاتها نظرت لسيدتها خديجة وسالت دموعها.

- ماذا يبكيك يا حبيبتى ونور عينى وحشاشة كبدى؟!

- لا أحـزن على فـراق الدنيـا يا سـيـدتى فـهى عند الله حقيرة، وإنما أبكي على فراقى لك يا سـيدتى وحبيبتى وأمى الحانية وقلبى الخفّاق وضياء بصرى.

وبكت السيدة خديجة الدموع الغزار قائلة:

- جعل الله حياتى امتدادا لحياتك يا حبيبتى وضياء بصرى.

وحينما جاء المساء انتقلت نور الصباح إلى خالقها، وفاضت روحها وسيدتها نائمة بجوارها، فلما استيقظت من نومها، قامت فَزِعة وكشفت الغطاء عن وجهها وعلمت وفاتها فبكتْ عليها، وقالت: رأيت فى المنام هاتفًا يخبرنى بوفاتها ويبشرنى باللحاق بها.

فإذا متُّ غداً فاجعلونى معها فى قبر واحد، حتى لا نفترق فى الحياة ولا فى الموت، ودفنت نور الصباح -رحمة الله عليها- وماتت سيدتها فى يوم دفنها، ودفنت فى اليوم التالى معها فى قبرها.

فانظر إلى تَعَلُّق روح هذه بروح تلك، وعظمة المحبة التى ربطت بينهما.

كان عمر مؤرخنا عبد الرحمن الجبرتى حينما حدثت تلك

الحادثة أربعة عشر عاماً، وهذا أعجب ما شاهده فى حياته - رحم الله الزوجتين الصالحتين.

وكان الشيخ حسن الجبرتى - مع إجادته للعلوم واللغات والفنون والبحث والاختراع وذيوع شهرته فى الآفاق - حَسَنَ الأخلاق دائم البِشْر، فيه وقار وحشمة وهيبة، بعيداً عن الرزائل والمعاصى، تعظّمه النفوس وتحبه القلوب، لا يعادى أحداً ولا يخاصم على متاع الدنيا الزائل، يمتاز بمكارم الأخلاق والتواضع، والحلم والصفح عن المسئ إليه والصفح عنه، ويمتاز بقناعة النفس وشرفها وكظم الغيظ، وحسن المعاملة للكبير والصغير وللغنى وللفقير وصاحب الرئاسة ومَن لا رئاسة له، ولا يقْبل أن يقبِّل تلاميذه يده، ولا يفتخر بعلمه، ولا يرى لنفسه فضلا على غيره فى العلم أو الجاه أو العمل أو الأصل، وله مكانة عظيمة فى قلوب الأكابر والأمراء والوزراء والأعيان، يذهبون إليه لزيارته ويذهب إليهم لقضاء حوائج الناس والشفاعة لهم عندهم، وتعليمهم من علمه الغزير، ولا يردُّون شفاعته ولا يتأخرون فى قضاء حوائجه، وله فى قلوبهم منزلة تفوق غيره من علماء الأزهر

الشريف لمعرفته بلغاتهم، وفضله، وعلمه الغزير، وأخلاقه العظيمة، وعفته وعزة نفسه، وبعده عن التطلع إلى المناصب أو المرتبات أو الجاه والسلطان.

وكان له ثلاثة مساكن: منزل بالقرب من الأزهر الشريف، وآخر بالأبزارية بشاطئ النيل، ومنزل زوجته القديمة تجاه جامع مرزه، وفى كل منزل له زوجة وخدم وعبيد وجوارى، ومات له من الأولاد أكثر من أربعين ولداً بين ذكور وإناث، ولم يعش له سوى ولده عبد الرحمن مؤرخنا العظيم، وهذه من عجائب إرادة الله سبحانه وتعالى.

وكان يرى الاشتغال بغير طلب العلم عبثاً وضياعَ عمر فيما لا فائدة فيه، وإذا جاءه طالب علم فقير ليتتلمذ عليه فرح به وأكرمه، وربما دعاه للإقامة فى بيته، وصار من جملة عياله، ومنهم من أقام عنده عشرين عاما قياما نياما فى ضيافته وحسن إكرامه ولا يبخل عليهم بالطعام والثياب، بل لا يُحْوِجهم لغسل ثيابهم، فكان يكلِّف من يغسل لهم ثيابهم، فقد أقام لطلابه النوابغ مسكناً ومدرسة من ماله ابتغاء وجه الله تعالى، فهل هناك من أغنياء اليوم من يفعل ذلك يا ولدى

حسبةً لوجه الله تعالى، كما كان يفعل الشيخ حسن الجبرتى؟! وكان يتنقل مع تلاميذه وأصحابه بين بيوته العامرة بخيرات الله تعالى، وأصحابه الملازمين له ليلاً ونهاراً: المشايخ محمد النفراوى، ومحمد الصبان، ومحمد عرفة الدسوقى، ومحمد الأمير، ومحمد الشافعى الجناجى المالكى، ومصطفى الريِّس البولاقى، ومحمد الشوبرى، وعبد الرحمن العريشى، ومحمد الفرماوى، وكان يباسط أصحابه ويمزح معهم بالنوادر والأبيات الشعرية والحكايات اللطيفة، ويتنقل معهم على شاطئ النيل وبين المتنزهات، وأماكن الطبيعة الرائعة لأن الله جميل يحب الجمال، ويقطعون وقتهم فى مدارسة العلم، والمفاكهات الأدبية، والنكات الظريفة.

وكان من تلاميذه شيخ المشايخ الشيخ على العدوى الذى درس عليه شرح الزيلعى فى فقه الأحناف، ومسائل الفلسفة. وكتاب «المواقف»، ولما قرأ الشيخ على العدوى على تلاميذه هذا الكتاب (المواقف)، فكان يسأله بعض الطلاب النوابغ عن بعض مسائله، فيقول لهم فى تواضع العلماء وعظمتهم: مكانكم حتى أذهب وأسأل أستاذى الشيخ حسن الجبرتى

وأعود إليكم بالصواب. وهذا من عظمة نفسه واحترامه لدينه وعقيدته؛ لأن هذا الكتاب من كتب العقائد الإسلامية.

وقد أعد مكتبةً فى بيته خاصة بالعلماء وطلاب العلم يستعيرون منها الكتب الغالية النفيسة، وكم تلفتْ كتب عظيمة أو فُقِدَتْ فلم يحزن عليها، وكان يعيد الفاقد أو التالف، وحوت مكتبتُه الكتبَ النادرة، وأرسل له السلطان العثمانى مصطفى نسخاً غالية من خزانة كتبه فى قصوره فى إستانبول، وكذلك أرسل إليه كتبَ عظماء الأتراك ومصر وتونس والجزائر وإيران، وحوت مكتبته الآلات الفلكية والهندسية وآلات الصناعة والحرف الموجودة فى عصره، وآلات تقطير واستخراج المياه والأدهان، وأهدى إليه طلاب أوربا صنائعهم وآلاتهم النفيسة، وقرأوا عليه علم الهندسة، ونشروا هذا العلم فى بلادهم، واستخرجوا به الصنائع البديعة، وقد نشر آلات معرفة الوقت فى كثير من مساجد القاهرة، وأصلح موازين مصر حتى لا يظلم أحداً فى الوزن،وألف الكثير من كتب العلم والدين فجزاه الله عن المسلمين خيراً .

وفى سنة ١١٧٩ هـ توفى ولده أبو الفلاح عن إثنتى عشرة

سنة، فحزن عليه أشد الحزن، واكتأبت نفسه، والحزن يولد الأمراض فى الجسم، فتوالت عليه الأمراض ومنها وجع المفاصل، وترك الذهاب إلى بولاق وغيرها، ولازم بيتَه فى الصنادقية بالأزهر، ونقل نساءه إلى هذا البيت، وصار لا يخرج من بيته إلا فى النادر، وعند الضرورة القصوى.

وصار يُملى مسائلَ العلم ويكتب الفتاوى ويراجع المسائل الشرعية مع إكرام الوافدين وإطعام الطعام، وقضاء حوائج مَن يقصده، ومراعاة أهله وأصحابه وتلاميذه مع بشاشة الوجه وحسن الخلق، ويخدم ضيوفه بنفسه، ويعمل بسنة رسول الله ﷺ، ويراقب ربَّه فى كل أعماله، ينام أول الليل ويقوم آخره يعبد ربه، وكان يصوم شهور رجب وشعبان ورمضان ولا يقول إنى صائم؛ وربما دُعِىَ إلى وليمة فيتظاهر بالأكل والشرب، وهو لا يأكل ولا يشرب لأنه صائم، مخافة نقص ثواب صيامه.

كان رحمه الله أبيضَ اللون، ليس بالطويل ولا بالقصير بل وسطاً، عظيم اللحية، واسع العينين، منوّر الشيبة، غزير شعر الحاجبين. جميل الوجه، وحينما اقترب أجله مرض فى

معدته فكان لا يأكل شيئاً إلا قذفته معدته، فقد أصابه مرض الصفـراء، واقتـصر على السـوائل، وهو مع ذلك يصلّى لله قائماً، ويكثر من ذكر الله وقراءة الصَّمدية والصلاة على النبى ﷺ بالصيغة السنوسية، ويدعو قائلا:

«يا رحيم كل صريخ ومكروب وغياثه ومعاذه»، حتى توفَّاه الله سبـحانه وتعـالى فى يوم الثلاثاء قـبيل الزوال أول شـهر صفـر عام ١١٨٨ هـ، وصُلِّى عليـه بالأزهر الشريف بمشـهد حـافل وعدد كـثيـر جـداً من الناس، وذلك فى صبـاح يوم الأربعاء، رحمـة الله تعالى عليه، ومات وله من العـمر سبع وسبعون سنة.

فهذا عالم- يا ولدى حفظك الله تعالى-من خيار العلماء، ومن نجوم الأزهر الشريف، جمع بين العلم والدين والأخلاق والسخاء والتواضع والاختراع وتحـصيل علوم العصر واللغات الشائعـة، وإفادة المسلمين وغـيرهم بعلمه واختـراعاته، فـهو مفخرة للأزهر ولمصر وللإسلام.

* * *

الحكاية العاشرة

محمد بك أبو الذهب

هذه يا ولدى - حفظك الله تعالى - حكاية الجبرتى عن الأمير محمد بك أبو الذهب، ذلك الأمير الذى خان مصر من أجل إرضاء الأتراك العثمانيين فى مقابل توليه حكم مصر. لقد خان مصر يا ولدى وخان ولىّ نعمته وأستاذه ووالد زوجته على بك الكبير. وأوقف زحف الجيوش المصرية المنتصرة لتحرير الشام من حكم الأتراك، وإعادة وحدة مصر والشام والحجاز والجزيرة العربية، كما كانت لمئات السّنين قبل احتلالها سعد هذا الخائن بحكم مصر؟!.. وهل مكث فيه طويلاً؟!

نحن الآن يا ولدى فى عام ١١٨٩هـ. وها هو ذا محمد بك أبو الذهب يجهّز جيوشة لمحاربة الظاهر عمر بالشام والاستيلاء على بلاده.

فنصب معسكره فى العادلية. واستعرض قواته فى البرّ والبحر، وملأ سفنه الحربية بالأسلحة والذخائر والمدافع والقنابل والشراب والطعام. وكان فخر مدافعه المدفع العظيم الذى أمر بصنعه فى العام الماضى وسمّاه صانعه أبا مايلة.

وتحرّك بجيوشه فى أوائل المحرّم عام ١١٨٩هـ. وأخذ معه من كبار الأمراء مراد بك وإبراهيم بك طنّان وإسماعيل بك. وترك بمصر إبراهيم بك الكبير. زميل مراد بك وصديقه. وسوف تعرف عنهما الكثير فيما بعد يا ولدى.

وقد جعل محمد بك أبو الذهب إبراهيمَ الكبير نائبًا عنه فى إمارة مصر. وكان ممثل الأتراك فى مصر وواليها هو مصطفى باشا النابلسى، وهو مقيم بالقلعة. ووصلت جيوش مصر إلى غزّة لم يقف أحد فى وجهها. ودبّ الفزع فى قلوب حكّام الشام؛ لأنهم يعلمون مهارة محمد بك فى القيادة العسكرية، وأنّه جبّار فى الحرب، وحظه فى المعارك فوق النجوم؛ لم يهزم فى معركة، ولم تقف أمامه قوّة، ولم تصمد فى وجهه مدينة. فتحصّن أهل يافا بها، وتحصّن الظاهر عمر بعكا وقلاعها الحصينة.

وسـارت الجـيوش من غـزة إلى يافـا والخـيول تملأ الجـوّ بصهـيلها. والموسيقى العـسكرية تصدح بمارشاتهـا. والطبول تقرع كـقعقـعة الرعد فـتُدخل الفـزع فى القلوب. والأعلام ترتفع فى السماء تطاول النجوم. والسفن الحربية تسير بمحاذاة القوات البـرّية رافعـة أعلامهـا. مطلقة مـدافعـها. والدروع والخوذات تلمع تحت أشعة الشمس الذهبـية فتخطف الأبصار والإبل تسير كالجبال المتـحركة تحمل المؤن والذخائر والمدافع. وهى تُرْغِى وتزبد. ووقف الجيش القوى على أسوار يافا.

وبدأ الحصـار.. ونصبت علـيها المدافع، ودكّـت أسوارها بالقنابل وجحيم المدافع. واستمرّت القذائف عدّة أيام وليالى، والأسوار الحصينة تقاوم الهـول. ويصعد بعض أهل يافا فوق أسوارها ليسبّوا أمير مصر محمد بك أبو الدهب. ولم يكتفوا بسبّ الأمير. بل كانوا يسبون المـصريين أيضًا، بأقبح السباب وأقذر الشتائم. وكانوا أغبياء فى ذلك غاية الغباء، فقد ملأوا قلوب القـوات المصرية عـداوة لهم وحقـدًا وقسوةً علـيهم. وملأوا قلوب الجيـوش المصرية بالحماس لتدمـيرهم والقضاء عليهم. وجاء وقـت الاجتياح، فسـقطت المدينة بعد أن نقب

المصريون أسـوارها من كلّ الجهات. وتـدفقوا عليـها من كلّ صـوب. وملكـوها عنوة واقـتـداراً. ونهب الجـنود المدينة، وربطوا أهلها بالحبال والجنازير بعد قبضهم عليهم، وأسرهم، وسبوا النسـاء والأطفال، وقتلوا من أهل المدينة عدداً كـبيراً. ثمّ بلغت القسوة غايتها، فجمعوا الأسرى خارج المدينة، وأمر محمد بك أبو الدهب القائدُ المنتـصر قوّاته بقتل الأسرى عن آخرهم. وتمّ قـتل الأسرى، ولم يميّز بين الشـريف والوضيع والنصرانى واليـهودى والعالم والجاهل ولا بين المسلـم وغيره ولا الظالم ولا المظلوم. وقتلُ الأسرى على هذه الـصورة فيه قسوة ووحشـية، ومخالف للإسلام الذى أمر بحـسن معاملة الأسرى من الكفّـار وعدم قتلهـم أو تعذيبهم أو تجـويعهم أو تكليفهم ما فـيه مشقّة عليهم. وقـد رأينا كيف عامل الرسول ﷺ الأسـرى فى حـروبه مع المشـركين والكفّـار بالرحـمة والإحسان والعطف. فإذا كان الإسلام يحسن معاملة الأسرى من الكفّـار غايـة الإحسـان فمـا بالك وهؤلاء الأسـرى من المسلمين فى غالبيتهم العظمى، مع قلّة من غير المسلمين.

ولكنّ سباب هؤلاء للمصريين ولقائدهم بأقبح الألفاظ قبل

سقوط المدينة، ملأ القلوب عليهم حقدًا وعداوة وقسوة.

ولم يكتف الأمير أبو الدهب بذلك، بل أمـر بعمل غريب عجـيب يدلّ على قسوته المتناهيـة مع أعدائه؛ فقـد أمر ببناء أبراج عاليـة من رؤوس القتلى، وجعل وجوههـا من الخارج حتى تعصف بها الرياح والعواصف والأتربة. ولإلقاء الرعب في قلب كلّ مدينة تقف في وجهـه، أو تصمد في حربه، أو تسبه وتسبّ المصريين.

وبلغ الظاهرَ عُـمَرَ ما فـعل الأمير أبو الدهب بمـدينة يافا. فامتـلأ قلبه بالرعب والفزع. فخرج هـاربًا من عكّا. وتركها وقد فتحت أبوابها وحصونها للقوات المصرية. فدخلها محمد بك أبو الدهب بغير عائـق. وغزا الخوف منه كلّ بلاد الشام. فخضـعت له، وأعلنت دخولها تحت طاعته، وإذعـانها لأمره وسلطانه، دون حـرب أو قتال، حـفظًا لإراقة دمـاء المسلمين والإخوان.

فأهلُ مـصر والشام إخـوة منذ قديم الزمـان، وكانوا دولة واحدة رفعت رايات الإسلام ضدّ أعدائه من التتار والصليبيين وبقيـة الأعداء في كلّ زمان ومكـان. وحقق محـمد بك أبو

الذهب آماله. وصـار حاكمًـا على مصـر وبلاد الشام. وبلغ قـمّة مـجده. حـتى ظنّ أنّه لو أراد القـبض بيده على نجـوم السماء لتحقق له ذلك.

وأرسل إلى مصر بأخبار انتصاراته الباهرة، وخضوع الشام له.

وأمر إبراهيم بك أمير مصـر ونائب محمد بك أبو الذهب بعمل الزينات فى مصـر والقاهرة. وأطلقت الصواريخ النارية وأطلقت المـدافع. ودقت الطبـول، وعـزفـت الموسيـقى العـسكرية، وأقـيـمت المهرجـانات فى الميـادين والشـوارع. وخرجت العامة ترقص فى الشوارع والنساء يطلقن الزغاريد. واستـمرّ مهرجـان الفرح والسرور ثلاثة أيام بلياليـها فى أوّل ربيع الثانى عام ١١٨٩هـ.

وسـخرت الأقـدار من هذا الانتـصـار. وفى الوقت الذى كانت الشـوارع تزدان بالزينات والأفراح وتقام أقـواس النصر فى الميادين العامة، عصفت الأفراح بقلب أبو الذهب وأغرقته أمواج السرور، وحطمته رياح الغرور.

وتقدّم ملك الموت إلى قلعة روحه ففتحها دون مقاومة وقبض روحه لتقابل ربّها وتحاسَب على أعمالها. لم تدافع عنه جنوده المنتصرة، ولم ينفعه ملكه العريض، وذهبه الذى كان ينثره على الناس شمالاً ويمينًا. وهو يقول لهم: خذوا الذهب فأنا أبو الذهب، ولا أوزّع عليكم غير الأصفر الرنّان. قال تعالى: ﴿حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون﴾ أى ذاهلون من قدرة الله ونفاذ حكمه. وفراقهم لأموالهم وملكهم وأولادهم.

وجاء خبر موته إلى مصر. فتعجّب الناس وأصابهم الذهول.

فهذا الأمير بعد أن دان له حكم مصر والشام. وخضع الجميع لطاعته وجاءت المراسيم من إسلامبول ومعها الخُلَعُ والنياشين بتوليته حكم مصر والشام. مكافأةً له على خيانته لعلى بك الكبير ولمصر. ولإيقاف زحف الجيوش المصرية على بلاد العثمانيين. لقد جاءته البشارة والمراسيم عند دخوله عكّا متصراً، فامتلأ قلبه بالسرور، ومن السرور ما قتل.

فأصابه الفـرح الزائد بالحمىّ. ومكث محمـومًا ثلاثة أيام وفى اليوم الرابع مات. ثامـن ربيع ثانى عام ١١٨٩هـ. وكان رسوله إلى السلطـان العثمـانى إسماعـيل بك قد أعدّ نفـسه لركوب السّفن التى ستـحمله إلى عكّا. لحمل جوائز السلطان إليه.

وحينما مات أبو الذهب اختلف أتبـاعه على قسمة خزائن أمواله قـبل دفنه، وحملوا السّلاح بعـضهم على بعض، لولا تدخّل مراد بك الذى قال لهم:

- أتريدون شمـاتة أهل الشام فينـا وتجمعّهـم علينا وسفك دمائكم؟ أم تريدون العودة إلى وطنكم وحسن المكافأة لكم؟

- بل نريد العودة إلى الوطن الحبيب وإلى عيالنا.

- إذن هيّا إلى الوطن الحبيب.

ونادى فى الجيش بالتحرك إلى مصر ومعهم جثمان قائدهم (أبو الدهب) الذى انتصـر على أعدائه وانتصـر عليه الموت. والذى ذهب ملكًا وعاد رمّـة من غير حـياة. وقد قام أتبـاعه بغـسله وتكفينه ولفّـه فى الشـمع ووضعـوه فى عربة تجـرّها

الخيـول وعادوا به إلى مصر بعـد ستة عشـر يومًا. وفى ليلة الرابع والعشـرين من شهر ربـيع الثانى عام ١١٨٩هـ حـضر مفتى مسجده ومـدرسته التى بجوار الأزهر الشريف أمام باب المزينّين. وهو الشـيخ الهـمام شـيـخ المشـايخ الشـيخ على الصـعيـدى الذى كان مـعظمًـا عنده وعند أستـاذه على بك الكبير. والذى كان لا يخـاف من كلمة الحق، ويقاوم المنكر، وينصف المظلوم.

جـاء الشيخ الأزهرى على الصـعـيدى وأمـرهم بدفنه فى مسجده ومدرسته، فحفروا له قبرًا فى الإيوان الشرقى الصغير ليلاً، وبنوا هذا القبر.

وفى الصباح خرجوا بجنازته من قـصره بقوصون. ومشى أمامه المشـايخ والعلماء والأمراء وأطفال الكتـاتيب وأصحاب الطرق الصوفية. وأمـام نعشه مجامع البخور وقـد وُضع فيها العنبر والـعود الهندى حتى تغـطّى تلك الرائحة الطيّـبة على الرائحة النتنة الكريهـة التى تفوح من جثّتـه. ودفنوه فى قبره وقرأوا عنده خـتمات القـرآن الكريم ووزعوا الصـدقات على روحه لمدّة أربعين يومًا.

وهكذا مـات يا ولدى جبّار عـصره والخـائن لوطنه وولىّ نعمته. نعوذ بالله من خيانة الوطن وجحود النعم والإساءة لمن أحسن إلينا.

* * *

الفهرس

الموضـــوع	الصفحة

رقم الإيداع	٩٧/٩٤٨٦
الترقيم الدولي	I.S.B.N- 977 - 241 - 213 - 6